عبد العزيز حسين

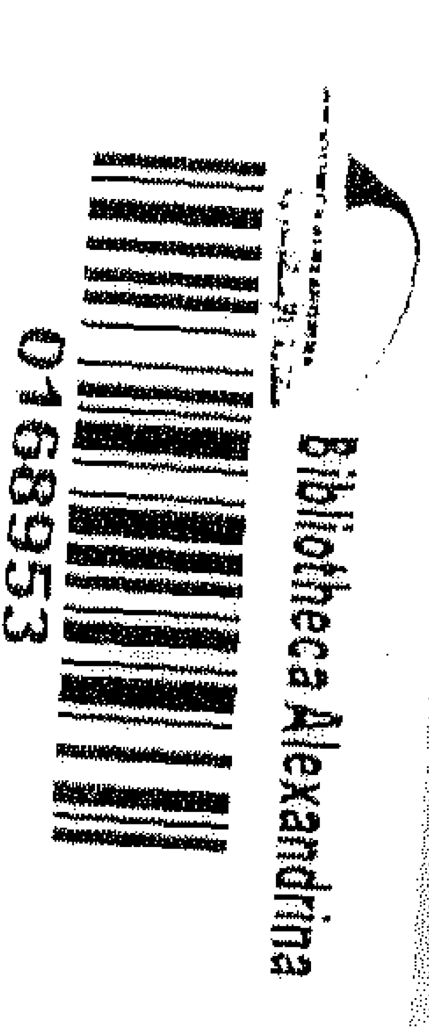
بين الاتحاد والتوحيد

قضية ودفاع

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

[جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]



عبد العزيز حسين
ليسانسيه في الحقوق

بين الاتحاد والتوحيد

قضية ودفاع

الطبعة الأولى
١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م

[جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف]

الإهـــداء

إلى هـذا الرجل الذى لقيته يوما وهو مؤمن كل الإيمان .

ثم لقيته يوما وهو ملحد كل الإلحاد .

إلى من أمعن فى عشق الماضى حتى ضاق ذرعا بكل جديد .

ومن أسرف فى عشق الحاضر حتى ضاق ذرعا بكل قديم .

إلى من أطمع فى أن يكون بين ذلك قواما .

فإذا أبى إلا البقاء فى موقف الحائر المتشكك فإنى أعده خيراً .

ذلك أن الشك أول مراتب اليقين .

موقف
من أجله تحرك القلم

لقـــــاء . . .

لم يكن عهدى بالرجل أن ألقاه هنا . . فى قلب المدينة وتحت أضوائها اللاهية . بل هناك . . حيث كان لقاؤنا الأول . على قمة ربوة خضراء تتوسط حيا من أحياء القاهرة العتيقة ذات التاريخ . حيث المآذن الشم العوالى ، وقد أمعنت فى الفضاء الرحب تتحداه وتحكى له وللزمن قصة الإسلام العريق .

هناك ، وفى أصيل كل يوم كان مجلس الشيخ . رجل مهيب الطلعة عريض الصوت . فى عبارته رصانة وقوة ، تراه ، وقد غاب وجهه فى ذقنه وحارت المسبحة بين أنامله ، وتحلق من حوله عدد ضخم من العشاق والمريدين وعدد آخر من الكتب العتيقة الصفراء يعاود النظر إليها ويقلب بين صفحاتها كلما عنّ له أن يقرأ نصا أو يراجع مسألة . وكانت هذه الكتب هى كل دنياه .

لم يكن يعجب الشيخ شىء فى هذه الدنيا ، يلعن الحضارة وأيامها ويذرف الدمع الغالى على أيام مضت قبل أن يكون للناس هـذا التمدن الآثم . وكان يرفض كل مقالة تقال فى هـــذا العصر . فالأرض ليست كروية الشكل ، وليست بيضاوية أيضا ولا برتقالية وإن أجمع الخلق على ذلك . والويل لمن يقول بدورتها حول نفسها أو حول الشمس . إن دمه مباح وقتله حق وجهاد فى سبيل الله ، والنار لمن يقوم على قبره أو يستغفر له .

هكذا كان شيخنا عندما التقينا فى سالف الزمن . فماذا دهاه ! هاأنذا أراه فتى يهوى المجانة والليل ويجوب الشوارع اللاهية والمقاصف المترفة ويمعن إلى أكثر من ذلك نهما فى ملذات الحياة .

لم تعد هناك لحية عريضة ولا عمامة قوراء ، واختفت إلى الأبد هـــذه الجبة الفضفاضة التى كانت تتهدل على جسمه الضخم والتى كانت تطل من كميها أصابع لاتفارقها المسابح ولا يهدأ لها فوق حباتها قرار .

لقد ذهب هذا كله وأصبح فى ذمة المـاضى البعيد . وأطل من فوق ياقته المنشاة وجه حليق مشرق قد علته الأدهان والعطور فتوارى تحتها كل شىء غير أمارة سوداء ما زالت تطل من فوق جبينه لتتحدث عن روعة المـاضى وتحـكى قصة ليالى طواها بين تعبد وسجود .

وكان لقاء آخر .

وجلسة أخرى على ضفاف البحيرة الهادئة فى قلب الحديقة الخضراء ، ولـكنها جلسة يتيمة . فليس هناك عشاق أو مريدون . لقد تفرقوا جميعاً أيدى سبأ يتذا كرون مأساة الشيخ ويندبون أيامه . وبقيت وحدى أنا الذى أسمعه وألقاه .

وحدث ما لم يكن فى الحسبان . لقد بدأ شيخى يغنى ! وراحت تنساب على شفتيه أنغام شتى وكلمات حلوة من الغزل الرقيق يرسلها إلى العشب الأخضر من حولنا وإلى الجالسات عليه من قريب وبعيد .

وتحرج الموقف وألقيت على الرجل سلام الوداع فلا ألقاه بعد ذلك أبداً ولـكنه أحاطنى بذراعيه ووعدنى بصمت مريح إلى أن نفترق . صمت عن الغناء والغزل .

وطفق الشيخ يرثى لحالى ، فقد اكتشف أننى ما زلت جامدا ضيق الأفق تماما كما كان هو منذ سنوات خلت . وأننى مازلت بعيدا عن الحياة الطبيعية التى يريدها منطق الحياة . فنحن أبناء الطبيعة السمحة يجب أن نحيا حياتها وننطلق انطلاقها ، يجب أن نتعلم من أخوة لنا على الأرض وفى الهواء والماء .

هذا الطير الشادى على الغصن ، وذلك الحوت المتقلب فى اليم وهـــذا القرد والبقرة والحمار ، أليسوا جميعاً أخوة لنا وأبناء عمومة ؟ إن الفرق الوحيد بيننا وبينهم هو أنهم عقلاء ! لم يخرج من بينهم رسل ولا أنبياء ولم ينعق بينهم وعاظ ولا دعاة أخلاق .

ليسق السحاب قبور أحبابى ! . . . ليحى الحيا قبر داروين ونيتشه وشوبنهور ولابلاس وفلتير وباقى أولئك العظماء الذين أصلحوا ما أفسده الرسل والأنبياء ! !

أنى استغفر الطبيعة من ذنوبى ، ذنوب جنيتها واقترفتها أيام كنت أجلس فى هذا المكان ألقى على الناس جهلا باسم النبوة والحكمة . وما زلت أذكر بالندم أولئك الذين ذهبوا ضحية وعظى وإرشادى . لقد سبق السيف ، ولا أحسبنى قادرا ـ كما كنت بالأمس ـ على هداية هذا القطيع الضائع ورفع الغشاوة عن عينيه وإعادته إلى حظيرة العقل . لقد ذهب أولئك الفتية والرجال ضحية فيمن ذهب من ضحايا الأديان ، سقطوا فى حبائلى أيام ضلالى وبعدت بهم عن أرض الحقيقة وألقيت بهم فى وديان عريضة من الأوهام والأحلام تعساء محرومين يحلمون بنعيم السماء .

وهل فى السماء إلا الفراغ والضياع !

وهل بعد الموت إلا الفناء والعدم !

ثم ماذا يا صديقى ؟ . .

ثم لا شىء غير الندم على حقبة طويلة من عمرى طويتها فى ضلالات الصالحين ! وغير نظرة إشفاق إلى أمثالك ممن لم يستيقظوا بعد . ثم مد يد العون إليهم . . . خذ يا أخى هذه قائمة وافية من الكتب القيمة . كتب تحمل بين صفحاتها أغلى تراث البشر ، أفكار العباقرة الذين شادوا ذلك الصرح المذهل من فكر العالم الحديث ، إنهم بخنر وماركس ولامارك وداروين وسائر العقول المبدعة والمعالم الواضحة فى تاريخ الإنسان كله .

وسألت شيخى القديم : والشرق . . أليس فيه من أقرأ له ؟ . . فقال يمكنك أن تقرأ لبوذا ومزدك ومانى وزرادشت وكنفشيوس . ثم لا بأس أن تقرأ للبيرونى وابن الراوندى وأبى العلاء . كلهم شرقيون يقتربون من

الحقيقة حيناً ويبعتدون أحيانا ولكنهم على كل حال خير ما فى الشرق ، على قلة ما فى الشرق من خير !

وعدت أسأل صاحبى أن يقدم لى مثلا عن رجل منهم وليكن أبا العلاء حين يقترب من الحقيقة وحين يبعد عنها . فقال على الفور : إنه يقترب منها إذ يقول :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

ولكنه يبعد عنها حين يقول :

خلق الناس للبقاء فضلت أمة يحسبونهم للنفـــاد
إنمـا ينقلون من دار أعمـا ل إلى دار شقوة أو رشاد

* * *

وكان مساء ..

وكان لقاء . . ولم يكن فى هذه المرة وحده .

كان يتبعه ولدان من أصغر أبنائه ، كلاهما مريض وكلاهما فى طريقه إلى الطبيب .

وقلت لصاحبى: شىء جديد ولاشك ياصديقى ، متى آمنت بالطب والأطباء؟ فقال منذ كفرت بالله ! . . لقد كنت أومن بالله وأكفر بالطب والتداوى فمرض كل أبنائى وبناتى ولم ينفعن الإلـه .

وقبل أن أسأل عن العلاقة بين هـذا وذلك كان الشيخ قد تدفق بحديث طويل . . . فقد كان الرجل يلعن كل شىء جديد ويراه بدعة يجب التحرز عنها . وكان مبالغا فى كل ما يعتقده صادرا عن السلف الصالح أو أثرا من آثار النبوة القديمة . وكان مبالغا فى فهم الأحاديث على وجه الخصوص ، فهو مثلا إذا قرأ الحديث « صوموا تصحوا » ، فسره على أنه الجوع حتى الموت وإذا قرأ « خير القرون قرنى» لعن كل القرون بعد ذلك بما فيها ومن فيها .

وكان يؤمن بأن التداوى بالعقاقير أو بالأعشاب وهم وضلال ، وبعد عن الإيمان الحق لأن الله هو الشافى المعافى . وإذا لم تنفع التعاويذ والرقى فى جلب الشفاء فدليل على أن الله يريد الابتلاء فصبرا على البلاء حتى يزول . أما الطب كما يعرفه رجاله فكفر يضاف إلى ضلالات الطبيعة والكيمياء والهندسة والمنطق والفلسفة . كل هذا علم لا ينفع ، وكله ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

على هذا الطراز من الحياة . بل على هذا الطراز من الموت ، سلك الشيخ طريقه ، يمرض أولاده فلا يزور بهم طبيبا ويجوعون فلا يقدم لهم غذاء مخافة أن تقوى على الغذاء شهوتهم فتدفعهم إلى طرق المعاصى والغوايات .

وهكذا أسرف الشيخ فلا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع ، وجاء اليوم الذى كان لا بد أن يجىء فإذا كل من حوله من آل بيته صرعى الأمراض والأدواء ، وتطول بهم العلل وتتحول إلى خبيثة مستعصية ، ويطول دعاء الشيخ وتضرعه إلى السماء ، ولكن السماء فى شغل عن الأغبياء .

فلما كبرت المصائب عن جهده ، ولما نفد المخزون من صبره ، تعقد نفسا وانقلب عكسا : فقد كان الرجل مصابا بما يسمونه الهوس الدينى فى أسوأ مراحله ، فلما طرأت عوامل التحول على طبيعة المعتقد الذى عاش فى غمراته زمناً تذبذب هذا المعتقد إلى نقيضه واندفع إليه بنفس القوة وبنفس الجنون .

رد فعل يحدث عندما يبلغ الكبت مداه . وانفجار يدوى تحت وطأة الظروف والحادثات . وتلك حالة يعانيها الفرد ويعانيها المجتمع أيضاً ، وتعمل عملها فى كل المجالات متى أخذت شكل العقيدة وقوتها ، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو دينية فتكون منها الانتكاسات الكبرى والانقلابات التى يتغير بها وجه التاريخ .

وصورة هذا الشيخ الذى قدمته تقابلها صورة جماعية نتخذ لها مثلا عهد النهضة فى أوربا وما بعده .

لقد جاء هذا العصر بمثابة رد فعل لعشرة قرون شداد هى عمر القرون الوسطى والتاريخ يذكر — ولن ينسى — مذابح التعصب الدينى التى ضرجت هذه الرقعة من العالم وسجلت على رجال الكنيسة أيام سطوتهم آثام أيامهم وآثام هذه النكسة الإلحادية التى أعقبتها باسم العلم وباسم التطور الحديث ، والتى يترجم عنها (اليفرلودج) رئيس مجمع تقدم العلوم البريطانى من خطبة له:

« لا يزال كثيرون من رجال العلم معادين للعلوم الدينية بسبب تطرف أصحابها الذى عانى أسلافنا الشيء الكثير منه واضطروا أن يجاهدوا ليباح لهم البحث عن الحقائق حسب الطريقة التى أرادوها ، وكان ذلك الجهاد أمراً ضرورياً ولكن بقيت منه فى النفوس آثار سيئة إحداها هذه الكراهية بل هذه العداوة للأمور الروحية ... » إلى آخر ما يقول فى خطبة له برئاسة المجمع عام ١٩١٣ .

ذلك لأن سيف الكنسيين المتعصبين فى تلك العصور لم يشبع من نكبة المسلمين فى الأندلس بل وقف بالمرصاد لكل خاطرة تخطر على رؤوس العلماء والفلاسفة ، وتاريخ محاكم التفتيش أبلغ من يحدثنا عن محنة الاضطهاد فى ذلك العصر ، فباسم الدين تضرجت بالدماء أرض الأسبان ، وباسمه ذاق الشرق أهوال الصليبيين وقامت المحاريق المروعة للعلماء والمفكرين وسجد عند أقدام البابا عالم مثل غليلو يطلب العفو والمغفرة ورغم ذلك يساق إلى السجن وهو فى السبعين من عمره حيث يفقد نور عينيه وهو الذى وهب النور للبشر وكشف أمام عيونهم أروع لوحة سماوية تتحدث عن عظمة الخالق وحكمته .

بيعت قنانى الماء والزعفران باسم دم المسيح ، وبيعت صكوك الغفران ومفاتيح الجنة وملكوت السماوات وبلغت تلك المهزلة آخر مداها وتطوع أحد الأغنياء فاشترى النار ونادى فى الناس بأنه لن يدخل أحدا فيها أبدا وبذلك اطمأن الناس على أنفسهم بأن لهم الجنة وكانت صفقة بارعة سرعان ما ظهرت آثارها على مبيعات صكوك الغفران !!

فى هذه المهزلة عاش الناس ردحا من الزمن ، حتى كان عصر النهضة وانطلقت سفائن المستكشفين تمخر عباب اليم شرقا وغربا ، ثم كان الاستعمار الأوربى لكل البقاع البكر مما جلب الثراء على تلك البلاد من كل أنحاء العالم .

كان ثراء ماديا وفكريا ، فقد وثب المغامرون الأوربيون على العالم الجديد والقديم وسيقت إلى أرض هذه القارة غنائم الدنيا جميعا ، ونهبت كنوز المعرفة من مدارس العرب فى أسبانيا ونقلت تراجمهم عن التراث اليونانى فألهبت ثورة الفكر الأوربى حماسا إلى هذا التراث فترجموه عن العربية والسريانية واللاتينية وماجت مدارس الغرب بالثقافات المختلفة وظهرت فى الوجود دعوة بيكون إلى التجربة ، وهو تلميذ المدارس العربية فى بلاد الأندلس . واهتز العالم المسيحى بالحركة اللوثرية الجديدة أو ما يسمى بحركة (الإصلاح الدينى) فتزعزع سلطان الكنيسة ، ثم خرجت إلى الوجود نظرية دارون فى علم الأحياء ، فكان لكل هذا هدير مروع أطاح بالبقية الباقية من رئاسة الكنيسة وسلطانها ومال ميزان القوى وبدأت محنة الأديان .

ظهرت الكلمة الملحدة ووقفت الكنيسة موقف الدفاع ترد سيولا من السخرية والازدراء وتطاولت أقلام قوية ومدرجات جامعية فنقدت الكتاب المقدس وأسرفت فى التعنت حتى أن رجلا مثل (لابلاس) الفرنسى عندما وضع كتابه (تكوين العالم) يسأله نابليون ماذا أبقيت لله فى كتابك ؟ فيجيبه : لست مضطرا يا سيدى إلى الإيمان بشىء لا حقيقة له . وأخيرا ينهض رجل مثل (نيتشه) فيتطاول على كل مقدسات البشر ويختم ذلك بإعلان موت الإله .

انطلقت من معاقلها ثورات بعيدة المدى فى العلم والفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد فأطاحت بآخر معاقل الحجر الفكرى فى أوربا وآوى رجال الكنيسة إلى جدرانها فى موقف لا يحسدون عليه .

وكان لتوالى الاكتشافات العلمية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر آثار خطيرة بلغت مداها ووصلت بالعلماء إلى حد الجنون ، إذ بدأوا يسكرون

بخمر الانتصار المعربد ويحسبون أن مغاليق الكون قد فتحت لهم وأنهم أمام طبيعة مفضوحة ترقص أمامهم عارية وتبوح لهم بكل ما فى صدرها من أخبار وأسرار ، فهذا يفسر الأجرام والأفلاك فى طبيعتها وهذا يتحدث عن تماسكها وسردورتها وثالث يفسر القوة والتفاعلات الكيميائية ورابع يدلى بأسرار الكهرباء والذرة ، ثم من يتحدث عن بناء الكون ويفسر الحياة وجرثومتها وأصل الخليقة ونشأتها . وغير ذلك ، وغير ذلك مما وصل إليه العلماء فى هذين القرنين ، فكانت لكل ذلك نشوة لعبت برءوسهم فتعالت صيحاتهم بأكثر مما كان ينبغى أن ترتفع وأطاح الغرور العلمى بكل ما بقى فى رؤوسهم من تعقل واتزان .

كان عصرا أشبه بالمراهقة فى عمر العلم . أخذ العلماء فيه يعربدون فى كل اتجاه وينشرون دعاوى عريضة لم يلبث بساطها أن انطوى بعدما بلغ العلم مرحلة الرجولة والتعقل . فقد أخرجت الذرة لسانها لهم تسخر منهم ومن أكذوبة الجوهر الفرد وتكشف لهم عنها كعالم من القوى والإشعاعات والثورات الكهربية التى تفوق فى سرعتها وفى تصورها كل سبحات الخيال ، وانهار البناء الكونى الذى أقامه نيوتن على جاذبيته إلا بضعة من لبنات ظلت معلقة بأذيال نظرية جديدة هى نظرية النسبية التى أرسى قواعدها العالم المعروف (هربرت اينشتين) ولاندرى هذا ينتظر تلك النسبية هى الأخرى من ضربات قد تطيح بها فى مقبل الأيام .

لم يكن هذا الانفجار الهائل إلا نتيجة محتومة لعصر الاضطهاد الكنسى والحجر الفكرى وتلك المذابح والمحاريق التى نصبت للعلماء ومن يحاولون بحثا عن الحقيقة فى أى مكان ، فلم يجد المتطرفون من المشتغلين بالعلوم الطبيعية والكونية والبيولوجية سيف انتقام يصلتونه على رقاب رجال الدين والمؤمنين برسالات السماء غير المبالغات والتهاويل فى شأن مكتشفاتهم حتى يزلزلوا عقائدهم ويدموا قلوبهم جزاء وفاقا .

وانضمت لواءات جديدة إلى هذا المعسكر الضخم تطوع فيها علماء النفس

والاجتماع والاقتصاد والتاريخ فقامت قيامات وارتفعت صيحات قوية ضد الأديان ومقرراتها وضد السماوات وتعاليمها ، وتعرضت التوراة لجانب كبير من هذه الحملة الشعواء فاتهموا إله اليهود بالجهل فى الجغرافيا وعلم الفلك ، كما نقدوا فكرة الخلاص فى الأناجيل وتناولوا بالتكذيب قصة آدم وقصة الخطيئة وحكاية الخلق من أساسها .

وتدخل رجال الاقتصاد أيضاً فنسبوا النظم الاقتصادية القائمة وقتئذ إلى أوهام الدين ومظالمه فهى من عمل الملوك والأقوياء والأغنياء ثبتها وساعد على بقائها رجال الكهنوت بتعاليمهم التى لا تزيد على أنها أفيون يخدرون به الشعوب لكى ترضى بقسمتها من الحرمان والشقاء ترقباً لنعيم موعود وانتظارا للملكوت فى السموات .

وما كان أغنى رجال الاقتصاد عن الخوض فى الأديان وقتئذ لو أنهم أرادوا العلم وحده والإصلاح وحده ، ولكنه الدم المسفوح والثأر القديم وعدد ضخم من رجال الدين كان ينعم بالعيش فى جوار الملوك والأقوياء تاركا هذا القطيع الشقى من غالبية الجماهير فى بؤس وحرمان .

ثورة على كل شىء ، وهدم لكل شىء ، ما دام قائماً على أساس من الدين، سخطاً على رجاله وانتقاماً لأحداث طواها الزمن فى غيابات العصر الوسيط .

تلك أمثلة قدمتها لما تحدثه الانفعالات المكبوتة فى ضمير المجتمع كما هى فى ضمير الأفراد فليس المجتمع إلا جسدا خليته الفرد ولحمته العلاقات التى تتأثر بتلك الانفعالات وما يحيط بها من ظروف ومؤثرات .

فمن هذا ومن قصة صاحبى الذى قدمته فى مطلع هذه الصفحات ، منهما معاً انقدحت فى نفسى شرارة البحث الذى أقدمه عن أخطر قضية شغلت عقل الإنسان منذ وجوده وهى قضية الإلحاد والتوحيد ، قضية الكفر والإيمان .

* * *

القضيــــة ...

الإلحاد والتوحيد

هناك من يظن أن مسألة الإلحاد والتوحيد من ولائد هذا العصر ومشاكله وأنها لم تسفر عن وجهها إلا عندما سادت موجة العلوم الطبيعية فغيرت معالم الأرض وأحدثت هذا الانقلاب الضخم فى معارف الإنسان .

وما نحسب الأمر كذلك . ففى أعماق التاريخ العجوز وفى سويداء الدهور المتطاولة من عمر الأرض وقف الإنسان يتأمل ، وانحنى على الأشياء يقلبها ويتساءل عن حقيقتها تماما كما يفعل الطفل فيما حوله من أشياء .

وفى بداية الوعى الإنسانى آمن كما ألحد . أطل من حوله فإذا الطبيعة حرب عليه ، تتخطفه الوحوش والصواعق ويأكله الحر والبرد وتلتهمه الأحداث الجيولوجية على اختلاف صورها وأهوالها ، فإذا هو باحث عن الملجأ وإذا هو متلمس لقوة ظاهرة أو خفية تحميه .

وكان ليل وظلام ، ومن خلال الظلام وقلبه الموحش لمعت بروق وأطلت نجوم ، فاتجه إلى السماء بجماها يلتمس عندها الأمن والخير ، ولكن حتى السماء لاتهدأ كل الوقت ولا تمنحه السلام ، فالكواكب المتفجرة والشهب العواتى تجوب الفضاء طولا وعرضا وتضرب فى أنحائه بجنونة مدمرة وتلقى الخوف والفزع فى قلب الإنسان الحائر والمخلوق الطريد .

فماذا وراء هذا ؟

لا بد أن يتساءل ذلك الغر الحدث الذى ألقى به إلقاء فى غمرة ذلك الكون الرهيب لا بد أن يتساءل . فهو ليس أقل وعيا من الطائر الذى يدرك أنه لا بد من شيء وراء الصوت الذى أفزعه ولو أنه لا يرى ذلك الشيء ومن أجل ذلك يفزع ومن أجل ذلك يطير .

لا بد من شيء وراء هذا الذى يرى ويسمع ، هكذا بدا للإنسان وتحدثت

نفسه إليه وطال التحدث والتساؤل عن سر ما حوله وعن حقيقة ما يصارعه فإذا هو بين ألوان من الخواطر الساذجة وبين وديان عريضة من شتى الأوهام والظنون .

فى هذا الفصل الأول من فصول الحياة بدأت تتكون ملامح الإنسان وجداناوعقلا ، وبدأ يمارس الحياة ألوانا ويحمل بين جوانحه رواسب الكفاح والتجربة فيصوغها مجتمعات وحضارات .

وفى كل أدوار تاريخه لعبت العقيدة دورها . فهى بحث عن إله الطبيعة ومحركها عندما كانت الطبيعة مجنونة ثائرة فى عصره الأول ، وهى بحث عن إله الطبيعة ومبدعها عندما بدأت تتحدث عن عجائبها وتبوح بأسرارها ، وهى أيضاً ثورة على كل شيء عندما يسكت كل شيء فإن الناس أعداء لما يجهلون .

وعبر تاريخ البشرية كما نراه فى الكتب وعبر تاريخها كما تتحدث عنه الآثار نرى القاعدة هى الإيمان . أما الإلحاد فدخيل على طبيعة الإنسان ، ينتابه فى عصور القلق النفسى وفى عصور الترف الحضارى وفى عصر الغرور العلمى ، وقد يكون رد فعل لموجة قوية من الإيمان المتطرف الذى تصحبه ظواهر مرضية تحل بالأفراد كما تحل بالشعوب والمجتمعات .

ولقد سبق لنا القول بأنه فى ظل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى شهد العالم أعنف حملة إلحاد ظهرت على مدى تاريخه ، إذ التقت فى هذه الفترة نكسة التزمت الصارخ الذى اتسمت به القرون الوسطى مع الرفاهة الحضارية التى سادت القارة الأوربية وكانت ثالثة الأثافى هى موجة الغرور العلمى التى لعبت برؤس العلماء عندما تبدت لهم سلسلة من الاكتشافات العلمية فظنوا أن الطبيعة قد دانت لهم وأنهم أصبحوا سادة الكون يمشون على رأسه فى صلف وكبرياء .

ومن هنا كانت موجة الإلحاد عاتية، صبغتها مظاهر العلم الطبيعى فى فترة ـ

المراهقة وأشعل نارها ثأر قديم ورد فعل مباشر لما ارتكبته السلطة الدينية زهاء عشرة قرون شداد هى عمر القرون الوسطى .

فإذا أضفنا إلى ذلك وسائل الإعلام التى أخذت بأطراف الأرض طولا وعرضا ومدى قدرتها على حمل الكلمة الملحدة إلى عالم أذهلته روعة الاكتشافات العلمية ، تصورنا مدى تلك الظروف التى خدمت هذه الضجة وأشاعت مهاترات لبعض العلماء فاخذت طريقها معربدة إلى أذهان الذين شهدوا ذلك العصر المفتون .

وسادت حرية الرأى فأتاحت لأقلام وألسنة كثيرة أن تلعب دورها إما طلبا للشهرة وإما حقداً على مجتمع يضن على هذه العبقريات العلمية أو الخطابية بما جاد به على الآخرين ممن ليست لهم عبقريات ، ولعل الكثيرين منا يعرفون رجلا من هذا الطراز عاش تحت سماء الشرق زمنا ونذر نفسه للحرب ضد الأديان والقيم النبيلة فى الشرق والغرب وهو من يدعونه بالدكتور شبلى شميل .

كان الإلحاد وكان التوحيد منذ صاغ الإنسان آلهته على صورته ولكن كلا منهما لم تكتمل ملامحه إلا منذ نزول الديانات الكبرى . كما أن النزاع الذى شب بينهما لم يكن عنيفا ومتعدد الميادين بمثل الصورة التى كان عليها إبان عصر النهضة الأوربية الحديثة . فقديما لم تكن الكلمة الملحدة تلعب دورها فى غير صومعة الملحد ورءوس تلامذته والمترددين عليه ، وحتى إذا لعبت دورها فلم تكن تتعدى نطاق الألفاظ والعبارات الجوفاء التى لاتذهب مذاهب العقيدة أو تهجم على مواطن الإيمان .

وتراث الفلسفة يعرض أمامنا الوانا من الصراع الفكرى أيام ازدهارها عند اليونان فنجد فيه الكلمة المؤمنة كما نجد فيه الكلمة الملحدة . ثم الحيرة التى انتابت جماعة منهم فهامت فى بحار من الجدل العابث واللهو بالألفاظ وهم

الذين عرفهم التاريخ باسم السوفسطائيين . ثم هذا العقل الفلسفى الكبير الذى ظهر بينهم باسم أرسطو وهو الذى نادى بالمحرك الأول لهذا العالم . ومن قبله أستاذه وصديقه أفلاطون الذى أغرق الفكر الفلسفى بنظرية المثل وبنى عالما بأسره خلف الطبيعة وجعل هذا العالم الغيبى هو الأصل الأصيل لهذا الوجود ، وقبل هذا وذاك رجل يعرفه الفكر الفلسفى نفحة غريبة فى دنيا الفلسفة وصورة فريدة فى عالم التصوف والإلهام ذلك هو سقراط كان يهتف بكلمات النبوة حيناً وتصورات أصحاب الأشواق والشطحات حيناً آخر ثم ينتهى به المطاف إلى موقف من أهل زمانه يرى فيه مكانه فى العالم الآخر فيهفو إليه فى فرحة الواثق المطمئن ويشرب السم راضيا ليترك دنيا الناس إلى عالم الحق والخير والجمال .

ويهيم الشرق القديم بين ألوان لاحصر لها من العقائد والنظريات التى ألهمت مفكرى الغرب بل ألهمت القدامى من فلاسفة اليونان بعرائس الفكر المتنور وأتاحت لهم تشييد كل ما تركوا لنا من تراث .

وجاءت الديانات الكبرى فلاقت بشرية حائرة وفى شوق جارف إلى تدين أصيل فشربت البشرية من معينها المتدفق وملأت كأسها بعد طول فراغ .

ووجد المحترفون مجالا للعيش فى عالم ظامىء إلى العقيدة السماوية فقام بعض محترفى الكهنوت بدعوى الحفاظ على تراث الأديان وملأوا الدنيا شروحا وتعليقات كما شاءوا وشاء لهم الهوى ، ووجد الملوك والطغاة سندا لهم من أولئك المحترفين يسندون عروشهم ويذلون القطيع الأسير لهم باسم تعاليم السماء .

ولقد قلنا إن العقيدة عندما تكون على فراغ وجهل لا تلبث أن تتحول إلى مرض نفسى وتنقلب إلى هوس لا يعرف له حدودا ولا يقف عند معقول فإذا وجد من محترفى الكهنوت وسدنة العقائد من يؤجج ذلك الهوس فهنا تكون الطامة الكبرى . ومن هنا سالت بحار الدماء التى يحدثنا التاريخ عنها والتى كانت

سبباً فى ثورة الثائرين على تراث الأديان . وقلنا أيضاً إن عقيدة من هذا الطراز لا تثبت أمام أية ريح تعصف بها ، فإذا تداعت تركت فراغا عقائد يا لا يلبث أن يمتلىء بالنقيض فيصبح عاصفا مدمرا ويظهر على أرض المعركة ملاحدة فى نفس الهوس ونفس الجنون .

لاقت المسيحية ألوانا من العذاب على أيدى الرومان ، وصبر على ذلك أولو العزم منهم وصعدت إلى السماء نفوس طيبة لم تكن تبغى إلا الحياة على عقيدة مسالمة تفيض بالمحبة والخير ، ولم يكن طغيان الطغاة من أباطرة الرومان إلا طبيعة عرفها لهم التاريخ دون أن يقف طويلا أمام هذه الظاهرة أو يتعب فى تعليلها . ولكن المؤلم حقاً أن يقف آباء الكنيسة نفس الموقف من الأحرار أو من يدينون بعقيدة أخرى أو من يحاولون الإفصاح عن رأى لهم فى مجال من مجالات العلم أو الفلسفة أو الاجتماع مما كان سببا لهذا الانفجار الهائل الذى شهدته أوربا على أرضها منذ بزغ فجر النهضة وبدأ سلطان الكنيسة يترنح .

وقف المؤمنون موقفا لا يحسدون عليه وتوالت بعد ذلك ضربات قوية يسددها العلماء والمكتشفون إلى العقائد السائدة وإلى النصوص الدينية التى كانت تحيط بهم يومئذ وعلى رأسها الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد مما أطاح بكثير من تقاليد الكنيسة ومقدساتها ومهد للثورة التى أعلنها مارتن لوثر فزعزعت أركانا كانت ثابتة من تراثها وأضعفت موقف المتشددين والمعتدلين على السواء ، فزال سلطان الكنيسة وسلطتها الزمنية فقنعت من الغنيمة بالانزواء فى ركن قصى تشغله الآن دولة الفاتيكان .

ولا نريد أن نطيل فى هذا الموقف . ولكننا نقول : إن التعصب لا يلد إلا التعصب وإن الثورة العارمة التى حمل لواءها علماء النهضة الأوربية وما بعدها ضد الأديان والمتدينين لم تكن إلا غضبة انتقام على رجال الكهنوت فى تلك البقاع غضبة ، هم كانوا مشعليها وكانوا حطبها على السواء .

ولعل أصدق ما يعبر عن روح هـــذه الثورة وهدفها هي عبارة المفكر والأديب الفرنسي فيكتور هوجو : « نحن مع الدين على رجاله » .

ونجد رجلا مثل (أوليفرلودج) يقول فى خطبة له برئاسة مجمع تقدم العلوم البريطانى : « لايزال كثيرون من رجال العلم معادين للعلوم الدينية بسبب تطرف أصحابها الذى عانى أسلافنا الشىء الكثير منه واضطروا أن يجاهدوا ليتاح لهم البحث عن الحقائق حسب الطريقة التى أرادوها ، وكان ذلك الجهاد أمرا ضروريا ولكن بقيت فى النفوس منه آثار سيئة أحدها هذه الكراهية بل هذه العداوة للأمور الروحية » .

ونجد رجلا مثل « فلتير » يعطف عطفا مليئا بالسخرية على الدين ويصر على أنه أداة صالحة وليس حقيقة ثابتة . ويقول فى تهكمه أنه مضطر إلى الاعتراف بالدين لتكون زوجته أكثر إخلاصا وخادمه أقل لصوصية .

ثم تندلع العداوة إلى الدين فى ذاته بعد رجاله فيقف رجل مثل « نيتشه » فيلسوف الألمان وخلاصة عقلهم المفكر ليقول : « عندما نستمع فى صباح الأحد إلى دقات الأجراس القديمة فعندئذ نتساءل : أهذا ممكن ! . . . أن هذا كله من أجل يهودى صلب منذ ألفى عام كان يقول أنه ابن الله وهو زعم يفتقر إلى البرهان . فلا جدال فى أن العقيدة المسيحية هى بالنسبة إلى عصرنا أثر قديم نابع من الماضى السحيق . وربما كان إيماننا بهذا الزعم فى الوقت الذى نحرص فيه على الإتيان ببراهين دقيقة لكل رأى آخر هو أقدم ما فى هذا التراث . فلنتصور إلهاً ينجب أطفالا من زوجة فانية . وخطايا ترجع إلى الله ويحاسب عليها نفس الإله وخوفا من عالم آخر يكون الموت هو المدخل إليه . . لكم يبدو لنا كل ذلك مخيفا وكأنه شبح قد بعث من الماضى السحيق ، أيصدق أحد أن شيئاً كهذا لا يزال يصدق ؟ » .

لكن حملة الفلاسفة فى عصر النهضة لم تكن غير ترديد لمقالات القدماء فلم يكن لها أثر يذكر إلى جانب الحملة التى شنها رجال العلم بعد ذلك العصر .

لقد طاف كوبرنيق بخياله أرجاء الكون ما استطاع أن يطوف ثم أعلن مركزية الشمس واحتضانها لمجموعة ضخمة من الأجرام . والتقى برجال الكنيسة على أرض معركة خسر فيها مفسرو العهد القديم دعواهم بأن الشمس هى التى تطوف بالأرض وأنها وقفت ليوشع النبى ، كما خسروا دعواهم بأن الإنسان هو سيد الكون وأنه وحده الذى يقف شامخا على أرضه وكل أجرام السموات تخدمه وترعاه .

وهؤلاء الذين عثروا على العالم الجديد . سألوا كيف نفسر وجود الذين عاشوا على أرض لم ينزل إليها المسيح وكيف نفسر عندهم فكرة الخطيئة والخلاص وإلى أى رجل ينتسب أولئك الناس مادمنا لا نعرف غير آدم واحد عاش فى العالم القديم الذى أباده الطوفان يوما . وغير بقية ركبت سفينة نوح وكان منها ذلك الذى نعرفه من ساكنى العالم القديم ، مشاكل يجب أن نحلها لتسلم لنا نصوص الكتاب المقدس .

وغليلو ، ذلك الذى أجهز على فكرة عاشت منذ أرسطو وبطليموس . لقد استيقظ من جديد ، وهو السجين الأعمى الذى سيق إلى المحاكم وركع تحت أقدام البابا ليعلن أنه تخلى عن مقالته الملحدة وليطلب الصفح والمغفرة وجانبا متواضعا من ملكوت السماوات .

وباستور ، لقد أمست أبحاثه سيدة الموقف ، والأمراض لم يعد سببها فقط هو غضب الخالق على خلقه ، كما أن مانعات الصواعق لم يعد هناك صوت ينادى بتحريمها لأنها تحد لغضب السماء وإعــــلان حرب دفاعية ضد إرادة الإله .

وشهدت تلك العصور سفائن الرواد والمستكشفين وهم يطرقون أبواب العالم الجديد ويدقون أوتاد الاستعمار فى كل مكان فيجلبون الخير والترف إلى

ربوع أوربا وتصحو نوبة الغرور عنيفة معربده فى رءوس القوم ويتبع ذلك ظهور قدرات على البحث العلمى فتقوم المعامل والمدارس المتعددة التى ساعد على إنمائها ترف ورخاء عريض .

ووقف المجتمع الأوربى يدعى لنفسه الفضل والسبق فى بناء الحضارة ونسوا أولئك الذين لم تسعفهم مناجم الفحم والحديد والمعادن المختلفة ورغم ذلك وضعوا أول لبنات العلم وشادوا صروحه وقواعده تحت سماء الشرق من أمثال الرازى وابن الهيثم وجابر ابن حيان .

وجارت سطوة الغرب على نفسها ، فمنذ تفتحت أمامه مغاليق الطبيعة بعض الشىء ومنذ باحت ببعض أسرارها بدأ الغرور العلمى يأخذ مداه ويضرب فى كل اتجاه .

ولم يهدأ منذ ذلك الحين ، فانطلق فى دور المراهقة العلمية يحطم كل شىء من حوله ويحلل كل مركب إلى عناصره فيدلف إلى حنايا الطبيعة ويمشى إلى بعض أسرارها ، وكلما بدرت له بادرة أو ظهرت له ظاهرة طار فرحا وامتلأ جنونا وتصور أنه قادم على أذلال الطبيعة وهتك أسرار الوجود والوقوف نهائيا على سر الخلق والحياة .

ولكن ما كاد ينتهى دور المراهقة العلمية حتى تكشف للعلماء أنهم وقعوا فى حبائل خدعة كبرى ، فالطبيعة لم تكن جادة يوم باحت لهم ببعض أسرارها ولم تكن هذه السنن التى لاحت لهم ولا تلك القوى التى وضعوا أيديهم عليها غير باب متواضع أسلمهم إلى سرداب مظلم وجهل طويل .

الكون محدود ، والكون غير محدود ، ولكل من الرأيين أنصار وإعداء .

ما هو أصل الوجود ، المادة أم الروح ؟

ما هو مصدر المعرفة ، أهى عقولنا أم حواسنا ؟

ما هي المفاهيم التي تتكون في عقولنا ، أهي موضوعية أم نسبية أم تصورية أم ماذا ؟

هل هناك شيء يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان ، أهو عقل أم فهم حيوان متطور ؟

ماذا يقول العلم وماذا يقول الدين عن أصل الإنسان ، وأيهما مصيب فيما يذهب إليه .

قضايا عديدة ومشكلات بعيدة المدى آثارتها وثبة العلم ولا تزال باقية بغير حلول . وستبقى مجالا للصراع وصخرة يتحطم عليها جهد الإنسان وكل ما يحاوله فكرا وعلما ، وذلك الخلاف المتشعب الذى يدور حولها إنما يقدم أكبر دليل على تصور عقل الإنسان فلو كان العقل مستطيعاً أن يصل إلى الحقيقة وحده وأن يراها رؤية واضحة لزال الجدل وأنقطع كل خلاف .

سيطول استماعنا إلى الآراء والنظريات فى كل قضايا الحياة ، ويطول استماعنا أيضاً للدعاوى العريضة التى يتشدق بها غرور العلماء .

ولم يكن فى حساب الذين أخذتهم نشوة الغرور فى عصر النهضة أن يلتقوا بهذا الطابور المتطاول من الأسئلة عندما لاحت لهم بوارق الأمل فى قهر الطبيعة والكون وإنما لاحت لهم قضية الوجود كأنها رحلة طيبة فرشت أرضها بالورود .

وأفاقوا على مشارف القرن العشرين وليس بأيديهم غير بضعة هزيلة من قواعد الميكانيكا والسببية العلمية التى أتاحت لهم عددا من المخترعات والآلات وبقى الكون مغلقا على نفسه وظلت المشاكل التى طالعت وجه الإنسان من فجر حياته قائمة معقدة تنتظر الحلول .

حار العقل فى فهم العقل ، ما هذه القوة الكامنة فى الإنسان يتصور بها الكون وليست من طبيعة الجسد ، ما جوهرها وفى أى مكان تكون ؟

من أى عالم نستمد معرفتنا . من أى نبع نستمد هذه الكليات والمجردات .. أهو من عالم المثل . أم أنها روابط التجربة وإملاءات الحواس. أم إنها مدد من العقل الأكبر الذى يعرف دقائق الكون ثم يرسلها شعاعا ينير به تلك العقول ؟

والحياة ما خطبها ؟ ومن أين اتت إلينا ؟ أهى انبثاق مادى أم تطور للمادة ذاتها أم هى جوهر غريب هبط إلينا من كوكب آخر ؟

من ذا الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا؟ ماهو سر الشوق والتجاذب بين ما نرى وما لا نرى من كواكب وشموس وعدد لا يحصى من الأجرام ؟ ما هى المغناطيسية ؟ وما معناها ؟ وما هى الجاذبية وما حقيقتها ؟ أم أنها أسماء بلا مسميات يريدون بافتراضها وضع نظام يسيغه العقل ويصبر على صحبته إذا أراد أن يتأمل فى صورة الكون العجيب ؟

حارت عقول وتضاربت نظريات وامتلأت جعبة العلم بالعدد الغديد من الإفتراضات فى كل مجال وكلما ظهرت نظرية لعنت أختها واحتلت مكانها . فالأثير يلعن الفراغ لأن الأخير لا يسمح للضوء أن يقطع ما بين الشمس ، والأرض . والنسبية تلعن الجاذبية وتهد أركانها وتحسب نفسها فصل الخطاب فى قضية الكون ثم يجىء بعد ذلك من يقول إن النسبية ليست غير تصوير معقول علينا أن نقبله حتى يظهر فى عالم الفكر مولود جديد .

والعناصر كم هى فى هذا الوجود ؟ إنها تتزايد واحداً بعد واحد وكم من شىء يظنونه عنصرا واحداً كالهواء مثلا فإذا هو يسخر منهم وينجلى عن عدة عناصر وأمشاج. دع قصة الخلق ودع لغز الحياة فالقوم أمامها فى حيرة لا تنتهى وتسأل ماذا عرفتم عن الأمراض والعلل وعن الجراثيم والفيروسات ؟ ستجد ألوانا من القول وألوانا أخرى من العلل التى لا تجد من يداويها ومع ذلك يتبجحون بأنهم قاب قوسين من سر الحياة ، بل يستطيعون خلق الحياة !

وعاش الناس يتعاملون مع الذرة على أنها جوهر فرد ، وقال قوم إنها تقبل القسمة ورفض هذا القول آخرون . ثم طلعت عليهم آخر المطاف بشكل لم يكن يطوف بخيالهم ثم انتهت إلى غيب محجب يخبطون فى عالمه بطابور طويل من الرياضيات المعقدة التى دوخت رءوسهم وأطاحت بهم فى عالم من الهوس الرياضى والتصوف العلمى .

هذا قليل من كثير مما شغل بال العلماء فى عصر النهضة وما بعده فهز مضاجعهم فاندفعت عجلة الفكر فى عنفوانها مجنونة كمراهق متهور لعبت بكيانه النزوة وأفلت منه العيار ، وانطلقت فى هذا الوقت أحاديث النشوة الطارئة وعبارات الغرور العلمى تدعى أن الطبيعة قد سلمت قيادها لأن بضعة قوانين بانت لهم وما كان أكثرها إلا فروضاً متطوحة كشفت بعد ذلك عن زيفها الأيام .

أين الأثير ؟ إن النسبية تزعم أنها ليست بحاجة إليه .

وأين الشمس فى ثباتها كما زعموا ؟ إنها طوافه تقطع الفضاء الرحب وتجرى لمستقر لها ، أو لا مستقر لها ، ومن حولها حشد هائل من الكواكب والأجرام .

والجاذبية أين أيامها ؟ إن اصحاب النسبية لا ينظرون إليها ولا يجدونها سبباً يفسرون به كل مظاهر الكون .

والذرة لم تعد جوهراً فرداً : ولكنها طاقة مروعة تحمل الهول الأكبر . إنها كهرباء ، إنها نار ونور ، إنها وهم وغيب ، إنها السر العجيب الذى يكمن خلف هذا الفلك الدوار .

والمادة . . ماذا دهاها ! لقد ظنها القوم بل اعتقدوا أنها أزلية لا تجىء من العدم ولا تذهب إليه فإذا هم أمام معضلة كبرى ، فالتحول فى ذرة الأيدروجين يقول لنا أنها صائرة إلى النفاد بتحولها إلى عناصر أخرى ، ولكننا نرى الشمس باقية لا تنفد رغم التحول الدائم على ذراتها منذ الأزل ، ومعنى ذلك

أن مدداً من الذرات الأيدروجينية يأتى إليها من المجهول كما يأتى إلى بقية النجوم اللامعة وأنصاف اللامعة ومعنى ذلك أيضاً أنه يخلق من عدم .

وأشعة الكون ، ما مصدرها ؟ إنها تهيم فى الفضاء الرحب فى سرعة الهول الأكبر لا يدرى العلم من أين تأتى ولا أين تذهب .

والكون . تقول النظرية النسبية أنه ما زال يكبر ويتسع مداه لحظة بعد أخرى ولكن أين حدوده وأين مداه ؟ دوار ضخم يصيبنا عندما نتصور كونا له حدود وعندما نتصور كونا بغير حدود .

والنظريات العديدة تغدو وتروح ومقررات العلوم تتغير وتتبدل ومشارف النصف الثانى من القرن العشرين تطالع علينا بلون هادىء من التعقل والوقار العلمى الذى يعرف نفسه ويستغفر للماضى بكل ما يحمل من غرور وحماقات ، ويقف العلماء فيرددون مع العالم الرياضى والفلكى العملاق (جيمس جينز) : « ومهما أكبرنا من شأن ما وصلنا إليه فإننا لا نستطيع أن ندعى أننا قد تبينا شيئاً أكثر من بريق ضئيل ، وقد لا يكون هذا البريق كله إلا وهما وخداعا لأننا لم نستطع أن نلمح منه شيئاً إلا بعد أن أجهدنا عيوننا فى التطلع إليه . وبذلك لا يكون أهم ما نريد أن نقرره هو أن لدى العلم اليوم أحكاماً يصدرها، بل يجب أن يكون ما نقرره هو أن من واجب العلم أن يمتنع عن إصدار الأحكام . ذلك أن نهر العلم كثيراً ما التوى على نفسه » .

فتحت الجلسة ...

واتخذ القضاة مجالسهم وقد حملت رءوسهم علما وحكمة يزنون بها الأمور . يحيطهم ثلة من المحكمين هم علماء الكون والحياة .

ونودى بممثلى الدين والعلم ، وجلجل فى سماء الجلسة صوت الإدعاء وصوت الدفاع . ويقف ممثل الدين هنا موقفا لا يحسد عليه ، فهو خصم منكور الهوية كما يزعم الاتهام وعليه أن يقدم دفاعه أولا وبعد ذلك يقدم نفسه . إن البطاقة لن تكتب له قبل أن يكشف عن وجهه ويكسب دعواه .

ونسأل الاتهام عن ذلك فيتذرع لنا بعدة أسباب كلها تضع الدين فى موقف حرج :

أولا — كان الدين فيما مضى يعادى الفلسفة وحدها رغم وحدة الهدف من وجودهما فهو إيمان قلب وهى إيمان عقل ، وظل العداء قائماً بينهما حتى توارى المنطق الصورى من دنيا الفلسفة وأصبحت واقعية تستمد حياتها من المسلمات العلمية وتخلصت نهائياً من شعر المؤلهين الأقدمين فى الشرق وفى آثينا تاركة ميدان العداء لما تفرع عنها من علوم مختلفة المشارب والاتجاهات أخذت كلها تناضل الدين عن أرضه بينما وقف لها وحده فأثبت فى مستنقع الموت رجله وناضل عن نفسه نضال الأبطال .

ثانياً — تشعبت على الدين معاركه التى يخوضها وتكاثرت المسائل التى وجد لزاما عليه أن يعالجها ليواجه تحديات المجتمع المتطور وليساير أجيالا ومجتمعات تختلف فيها المشارب والمناهج ، كما وجد نفسه مضطرا لأن يواجه معضلات على بساط الطبيعة نفسها بعد أن كانت رسالته أصلا فى مجالات النفس والروح .

ثالثاً — وقف العلماء صفاً واحداً يشيرون إلى كتاب الكون فى حجمه

الضخم ويقرءون منه صفحات قوية تهز المشاعر وتزرى بكل كاتب وما كتب بينما وقف الدين وحده لا يستمد سناده إلا من مقالات القدماء متواترة وغير متواترة وهو فى سبيل ذلك يعانى من تراث الأجيال ألواناً من المفاهيم كانت تلائم كلا منها وقد يضارب بعضها بعضاً أو يأخذ مصادره من آفاق بعيــدة تصعب رؤيتها أو مناطق موحشة يكتنفها شك وظلام .

وإذا أطلقنا كلمة (الدين) فإنما نعنى ذياك المنهج التاريخى الذى تلقته البشرية تباعا وعبر تاريخها وعندما أحست فى جوانحها ظمأ إلى برد الإيمـان واليقين ، ذلك المنهج الذى ينتظم فى سلكه كل الالتفاتات الواعية إلى حكمة الوجود وجوهره ويحتوى فى وعائه كل الإشارات الواضحة إلى ملامح الكون ومعالمه وكل المبادىء القوية والومضات النقية التى غمرت كيان الإنسان فألهمته ما ألهمت من مثل عليا وغرست فى طبائعه تذوق الفن والخير والجمال .

ولكننا حين نتصدى لقضية الدين مع العلم نرى من الخطل أن نضرب فى حنايا التاريخ البعيد والأحقاب المتطاولة لنبحث فى ظلامها عن ومضة هنـا أو هناك ثم نحشدها جميعاً فى وجه العلم أو نفضح بها دعاوى العلماء ، بل المعقول أن نعمد إلى أكثرها جدة وأقربها عهدا وأشملها منهجا وأوسعها تفصيلا لكى نواجه به الجبهات المتعددة التى فتحها العلم .

فلقد سبق أن قلنا أن العوامل التى طرأت على موقف الدين هو انفصال العلوم عن الفلسفة ثم تعدد الفروع العلمية واحتلالها مواقع محسوسة فى دنيا الناس ثم اضطرار الدين إلى أن يواجه العلم فى تلك الجبهات المتعددة بنفس سلاح العلم ومعداته بعد أن كانت مجالاته فى عالم النفس والروح .

كذلك كانت الديانات الأولى لم تكن غير ومضات خافتة ومناهج ضحلة تلائم الأدوار ، التى وضعت لها من عمر الإنسان الباكر عهد ما كان طفلا فى وعيه وإدراكه ، فلما وصلت به الأزمنة إلى عمر الشباب وصار بحاجة إلى غذاء

روحى وعقلى كامل هبطت إليه آخر رسالة تلائمه وتمشى معه على وجه الزمان غضة متجددة ألا وهى الرسالة الإسلامية .

وأكاد أسمع من يهمس ويقول : طبعاً ... ألست مسلما ! .. وهذا القول لا أهمية له ، فهو يحمل صفة الدورية من غير جدال . ثم أين هو التعصب فى ذلك؟ أليست الأديان فى جملتها جبهة واحدة أمام أعدائها ، وأليست فى جوهرها تدعو إلى غاية واحدة وتلتقى عند أسمى مناهج الحياة وآدابها ؟ إذن فزحف أحدها فى معركة الإلحاد وانتصاره إنما يضع الغار على جبين الأديان السماوية الصحيحة كلها .

* * *

والآن ... ماذا فى جعبة العلم ؟

ماذا لديه من طعنات يوجهها إلى صدر الدين والمؤمنين به وبما وراء الطبيعة من ملك وملكوت ؟

١ — يقول العلماء الطبيعيون : نحن لا نرى الله . . وغير المحسوس فى شريعتنا محض وهم وخيال .

٢ — ويقولون أيضاً : إن هذا النظام الكونى يمكن أن يأتى مصادفة فليس ثمة داع لفرض إله .

٣ — ويقولون أيضاً : إن المادة لا تقبل الفناء ولم تخلق من عدم فلأى شىء إذن نفترض الخالق .

٤ — ويزعمون أيضاً : إن الكون ملىء بالشرور والمظالم وهذا ينافى وجود إله كامل بالمعنى الذى يفهمه المؤمنون .

٥ — والإجتماعيون الماديون يفسرون حب التدين فى الإنسان بأنه ميراث الضعف والحياة البدائية التى عاشها تحت وطأة الطبيعة وقسوتها مما دفعه

إلى تلمس الأمان فى حماية قوة تخيلها فى عالم الغيب . وهو ما كان يستغله جماعة من الأذكياء القدماء الذين أطلقوا على أنفسهم وصف الرسل والأنبياء .

٦ — وأصحاب نظرية التطور يقولون بالخلية الأولى وبالتسلسل النباتى فالحيوانى وينفون شيئاً اسمه الروح يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان فكلهم سلالة واحدة ومن طبيعة واحدة .

٧ — وبعض المشتغلين بالكيمياء العضوية يزعمون أنهم قادرون على خلق الحياة إذا توافرت لديهم العناصر والأسباب والزمن الطويل .

وهناك ضربات واعتراضات أخرى يسددها الملاحدة إلى صدر الدين والمؤمنين به سوف نأتى عليها . وكلها لا تخرج عن فحوى ما تقدم ولا تزيد على كونها فروعا منها .

* * *

والمؤمنون ـ وهم جل البشر ـ وبينهم أساطين العلماء والفلاسفة لا تزعجهم مثل هذه الاعتراضات ولا يجدون فى جوهرها قوة تزحزحهم عن إيمانهم ، فإيمانهم واثق لا يقبل الجدل ولا يمكن أن يوجد فى قلوبهم عبثاً ما دام لكل حاسة فى الإنسان ولكل جارحة فيه غاية خلقت من أجلها وتخصصت لها . فالسمع والبصر لم يخلقا عبثاً وكلنا نعلم الغاية منهما فكذلك الفؤاد ، إن حقيقة ما يدل عليه القلب ويهدى إليه لا تقل عن تلك التى يدل عليها السمع والبصر بل إنها تزيد عليها ، إن الأحاسيس الخفية والوجدان طاقات يعمر بها القلب وينفذ بها إلى الوجود المطلق من غير حدود أو سدود ، أما السمع والبصر فأدوات محدودة الطاقات والغايات ، نسمع بها الصوت فإذا ابتعد أصبح خافتاً ثم همساً غامضاً ، ثم لا شىء ، ونرى الشىء حتى إذا تطوح بعيداً تحول إلى ظلال فأشباح تخدع النظر ثم يبتلعها الفضاء ويحتويها الخفاء .

وآخرون من المؤمنين لا يقنعون بذلك ويرونه عجزا وتخاذلا أن يمروا كراما على مقررات يسوقها العلم متى رأوها قوية واضحة . وهم الذين نهلوا من حياض الثقافة المعاصرة ولعبت ظروف معينة فى حياتهم فخلقت صراعا نفسياً يعاودهم فتنشأ بين العقل والقلب ملاحم كبرى يشب ضرامها بين الحين والحين .

وباسم أولئك يتحدث هذا الدفاع .

وباسمهم نصب دفاعنا تباعا على ما ذكرنا من اعتراضات .

* * *

نحن لا نرى الله

هكذا يقول الطبيعيون ومن أجل ذلك لا يؤمنون به .

أى أنهم يريدون لهم إلهاً عجلا جسداً له خوار .

وهكذا يعيد التاريخ نفسه ويتحقق الرأى الذى يقول إن الإنسان يتطور ولكن ليس حتما أن يمشى دائماً إلى الأمام .

ونسأل هؤلاء الناس — وهم قلة متطورة — عما إذا كانت رؤيتهم للشىء هى الدليل الوحيد على وجوده ، فإن قالوا نعم فعليهم منذ اليوم أن يمحوا من قاموس العلم الطبيعى أشياء وأشياء لا يرونها وإنما يفترضون وجودها بحكم الضرورة إليها ، سلام على الأثير وعلى الأشعة الكونية وعلى الجاذبية العامة والنسبية وعلى أشعة إكس وجاما وما فوق البنفسجية وما تحت الحمراء ، وإذا جلسنا فى حجرة أو خلاء فلن نعترف بما ينقله إلينا الراديو والتليفزيون مادمنا لا نرى ولا نسمع قبل فتحهما صورة أو صوتا .

وهذه الحقائق العلمية من مخترعات ومكتشفات أين كانت قبل أن يكتشفها القوم ، هل كانت عدما ؟ إنهم لا يوافقوننا على ذلك لأنهم لا يعترفون بالعدم .

كان لهؤلاء الناس أجداد عاشوا منذ زمن بعيد فماذا كانوا يعرفون ويشاهدون بما نعرف ونشاهد اليوم؟ لقد كان التحدث بينهم عن آلة كالتليفزيون أو جهاز الاستقبال مثلا ليس إلا خرافة وهرطقة وطريقاً واسعاً إلى مستشفى المجانين .

فمن أى عالم جاءت هذه الحقائق الواقعة وأين كانت قبل أن تتبدى وتعيش واضحة فى دنيا الناس .

هل يستطيع السادة أن يحدثونا عن طبيعة العقل وحقيقة الحياة وها هى غادية ورائحة بينهم فى كل آن ؟ .

إنهم لا يستطيعون حديثا عنهما كما لا يستطيعون إنكاراً لوجودهما ، وبغير آلاتهم ووسائلهم الحديثة ماذا كانوا يعرفون عن تلك الإشعاعات المجهولة التى تجوب الكون وتعيش بينهم . ما الذى عرفوا عن أشعة إكس مثلا قبل أن تتراءى لهم آثار تركتها على الأجسام الحساسة وخلايا الأحياء ، لاشيء ! بل هناك ما هو أقرب من هذا وأكثر وضوحا ، تلك الأطياف والألوان التى نشاهدها فى قوس قزح ، ماذا تعرف عنها عيون الناس وهى تغدو وتروح أمامهم كل يوم فى شعاع الشمس إلا أنها خيوط بيضاء ناصعة لاتحمل اسما إلا أنها ضياء وإذا قالوا — ولا بد أن يقولوا — أنهم قد اهتدوا إلى كل ذلك بآثاره فقد استوينا على الدرب لقد أصبحوا والمؤمنون سواء .

إن المؤمنين لايدعون أكثر من ذلك وهم يتحدثون عن ربهم ، إنهم يتحدثون عنه بآثاره ويهتدون إليه بكل ما يعرف العلماء وأكثر مما يعرفون .

ولكن القوم كعادتهم يتكلمون من مركز الغرور فيزعمون أنهم عرفوا كل شيء عن عالم المادة الذى نعيش فيه .

ومع أنها دعوى عريضة يقوم لتكذيبها ألف دليل فإننا نسايرهم جدلا ونسألهم أى لون من الآلهة هذا الذى تريدونه أن يخضع لكم ويصبح أسيرا للمعامل والمباضع والأنابيب ؟ لابد أن يكون مثل إله صاحبكم (نيتشه) نوعا من الإنسان الراقى أو حيوانا متطوراً كالسوبرمان .

وعجيب هذا الطبيعى الذى يدعى أنه لم يعثر بعد على إله يؤمن به وهو الذى لم يعثر حتى على نظرية طبيعية يكتب لها البقاء فى سجل العلم أو على الأقل لايهددها زوال .

حتى النظرية التى كانت فى نظرهم أبدع ما تمخض عنه الفكر العلمى وهى نظرية الجاذبية حملت عصاها واستقل بها النوى تاركة مكانها لنسبية أينشتين التى تستعد بدورها للرحيل حتى ليقول الفيلسوف المعاصر برتراند راسل :

« إن القوة الموجودة بين كرتين من البليارد تبدو مفهومة لأننا نعرف ما يعنيه الاصطدام بشخص آخر ، أما بين الأرض والشمس وعلى بعد ٩٣ مليونا من الأميال فأمرها غامض وقد رأى نيوتن نفسه أن الفعل على البعد مستحيل ومن ثم اعتقد أن هناك نظاما آليا لم يكتشف بعد ، ولكنه لم يكتشف وظلت الجاذبية لغزا .

ويقول أيضاً : « إن هناك أكوانا تتسق مع قانون أينشتين ولكن هناك اعتراضات ليس فى وجودها ما يدعو إلى رفض نظرية الرجل وإنما يقضى بأنها ليست كاملة ، وقد افترضت افتراضات تستبعد النماذج غير المطلوبة ولكن لا يوجد حتى الآن ما يرضى تماما » .

ويقول أيضاً : « إن العلم لا يهدف إلى إرساء قواعد ثابتة أو عقائد أبدية وإنما يريد الاقتراب من الحقيقة بتقريبات متتابعة » .

ومنطق نظرية النسبية ذاتها يقضى بأن مفاهيم العلم نسبية وليست من قبيل الحقيقة المطلقة .

ونترك الجاذبية والنسبية لنواجه قصة الجوهر الفرد ، ذلك المارد المتلون الذى ظل الطبيعيون زمنا يتعاملون معه على أنه ذرة مادية لا تقبل التجزئة ثم استدار لهم أخيراً ، وقد تعرى من ثوبه الخشن وانقلب إلى ومضة خاطفة فقوة جارفة أصبحت بعد ذلك وهما ، إما أثيراً وهو فرض مجهول وإما عالما من الكهارب يتراقص فى سرعة الوهم ولا يقبل التعامل معهم إلا عن طريق الأرقام .

ولو أردنا لذهبنا مع القوم طويلا ولأكثرنا لهم من ضرب الأمثال ولكننا نقف هنا ونقذف فى وجوههم كلمة أخيرة قالها برتراند راسل وهو فيلسوف طبيعى يدور فى فلكهم :

« لقد كان (ليبنتز) يعتقد أن قطعة من المادة هى حقا مستعمرة

من الأرواح وليس ثمة ما يثبت أنه كان على خطأ وإن لم يكن أيضاً ما يثبت أنه كان على حق . فنحن لا نعرف فى هذا الاتجاه أو ذاك أكثر مما نعرف عن نبات المريخ وحيوانه ، إن عملنا مع المادة كرجل المال الذى يتاجر فى القمح والقطن تجريداً ودون رؤية أى منهما وكل ما يعرف هو هل تصعد أسعارهما أم تهبط ، وشبيه به رجل الفيزياء الذى لا يعرف عنها إلا بعض القوانين المعينة عن حركاتها ، إنه يعرف ما يجعله قادرا على تناولها علميا ، فهو يصل بعد أن يعمل خلال سلسلة طويلة من المعادلات تمثل فيها الرموز أشياء لن نعرف أبداً طبيعتها الحقيقية ، يصل أخيراً إلى نتيجة يمكن أن تفسر فى حدود إدراكاتنا الحسية وأن ينتفع بها لإحداث آثار مرغوبة فى حياتنا ، وعلى هذه القواعد تتوقف الاستعمالات العلمية للفيزياء » .

وبعد ذلك نختم أصواتهم بكلمة لحجة العلوم الكونية الحديثة سير جيمس جينز :

« وقد يرى كثيرون من الناحية الفلسفية العامة أن أهم ما أنتجه علم الطبيعة فى القرن العشرين ليس هو نظرية النسبية وما أدت إليه من اندماج الفضاء والزمن ، ولا هو نظرية الكم وما يبدو فيها فى الوقت الحاضر من إنكار القوانين السببية ، ولا هو تمزيق الذرة وما كشف عنه هذا التمزيق من أن الأشياء ليست كما تبدو فى ظاهرها ، بل أهم من ذلك كله إقرارنا العام بأننا لم نلمس بعدُ الحقيقة النهائية . فكأننا كما قال أفلاطون فى تشبيهه الشهير : لا نزال محبوسين فى كهفنا مستدبرين الضوء ولا نستطيع أن نشاهد غير الظلال على الجدار » .

والواقع أن المذهب المادى يحمل فى نفسه معاول هدمه ، فهو يدعى لنفسه الواقعية والتجسيد بينما تعج أركانه بالفروض والتخمينات .

ونشير على سبيل المثال إلى نظرية الأثير الذى يملأ الفضاء ويمثل أساس المـادة وكأنه بحر لجى تسبح فيه الأجرام وتدور الأجسام، وهو فرض لايمت إلى واقع ملموس وإنما يحتالون به على تفسيرات لولاه ما كان يمكن الوصول إليها ، وأمثلة أخرى بقاء المادة والسببية العلمية ، والزيادة والنقص فى الكهارب والألكترونات الذرية التى يفسرون بها كل التفاعلات الكيميائية ثم الجاذبية العامة وقد قدمنا كيف أن صاحب هذه النظرية لا يثق بها ولا يركن إليها وكذلك النسبية العامة والخاصة التى تحتل مكانها الآن فى كثير من أنحائها لأنه لا يوجد خير منها ، حتى ذلك الحين .

كل هذه فروض ونظريات وسبحات بعيدة المدى أحس الطبيعيون باضطرارهم إليها لتساعدهم على تفسير عدد من ظواهر الكون التى تملؤه وتزحم الطبيعة من حولهم معلنين أن هذه الفروض وغيرها لا تخضع لأية تجربة ولا يستطيع العلم أن يتأكد منها ، وأنها ستظل باقية حتى يهتدى العلم والفكر إلى ما هو خير منها .

ثم يبلغ بهم التورط فى هذا الباب إلى أن يفترضوا أن نجماً ملتهباً مثل شمسنا الدنيا يجب أن يحمل فى أردانه قوتى الجذب والطرد معاً حتى لا يجذب المجموعة الشمسية إليه فتحترق أو يبعدها عنه فتفلت من نطاقه وتذهب بدداً فى متاهات الفضاءوهذا الفرض أيضاً لا يمكن إثباته علمياً بل إنه أشد فروضهم بعداً عن المنطق واستحالة على التجربة فلا هم ولا غيرهم يستطيع أن يتصور اجتماع الجذب والطرد فى شىء واحد وعلى خط واحد .

بمثل هذا الخيال المحلق يفسر الماديون عالمهم الآلى ويرسمون له صورة ميكانيكية ليرفضوا كل فكرة ميتافيزيقية فكانوا كمن يفسر المـاء بعـــد الجهد بالمـاء .

وهذا عالم منهم يقول وهو يتحدث عن فكرة (الخالق المستمر) التى تطوف

بروسهم وهم يفسرون إقبال ذرات الإيدروجين من أعماق الكون لتملأ الفراغ الناتج عن تمدده ولتعويض ما يتحول منها فى أعماق النجوم الملتهبة :

« ولكى لا يتغير المظهر الإجمالى للكون بتغير الزمان وعلى الرغم من التمدد فمن الضرورى — ضرورة جلية — أنه فى أثناء تخلخل عناقيد المجرات لا بد من أن تظهر عناقيد جديدة لتملأ الفجوات ، فمن أين تأتى هذه العناقيد الجديدة ؟ تقول نظرية (الحالة المتزنة) أنه لا بد من أن تظهر المادة فى الفضاء الممتد بين المجرات بمعدل هو المعدل الضرورى لإلغاء التخلخل الناجم عن التمدد ، وقد يفترض مبدئياً أن هذه المادة على هيئة غاز الأيدروجين الذى يتشكل فيما بعد على هيئة نجوم ومجرات وعناقيد ، والمعدل الذى نفترض أن يظهر به الأيدروجين نسبة ضئيلة جداً ، ذرة واحدة فى فضاء بحجم كاندرائية القديس بولس كل ألف سنة ، فهى صغيرة إلى درجة تستبعد معها المشاهدات المباشرة ولكنها كبيرة بما يكفى للتعويض عن التخلخل الناجم عن التوسع ، والعملية التى يظهر بها الأيدروجين تسمى فى أغلب الأحيان باسم (الخلق المستمر) بيد أن هذه عبارة أخرى تحمل نغمات ميتافيزيقية ، ومن الأفضل ألا نستخدمها » .

فانظر كيف يفزع القوم من ذكر المسائل الروحية وإن أحاطت بهم وأمسكت بتلابيبهم ، إنهم يسبحون سبحاً فى مضنيات الخيال ويقبلون كل محال ما دام بعيداً عن الإيمان بالقوة الإلهية التى تعمل عملها فى مرافق الكون وأنحائه . الجاذبية فى نظرهم فرض جميل ، راقص ومطرب ، ولكن البشع فى وجوههم والثقيل على أسماعهم « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » .

وجميل أن يسمعوا عن تمدد الكون وتضخمه واتساعه ولكن ليس جميلا أن يسمعوا « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » .

وأحلى من السهر الممتع فى مواخير أوربا وأمريكا أن يروا أصول الكون آتية إليهم من عباب المجهول لترفع القواعد وتشيد البناء ما دامت نغمة الطبيعة الموات هى السائدة ، ولكن رعداً قاصفاً يصم آذانهم إذا تلوت عليهم « يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير » .

هذا رغم ما يعترف به واسعو الأفق من علمائهم من أن العلوم الطبيعية إنما تصف ولا تعرّف وأنها نسبية المعرفة عندما تدعى العلم والعرفان .

وحتى التجربة وهى مرجعهم وفيصل الحكم عندهم لم تسلم لهم من عاديات الزمن ، فقد ظهر أنها لا تتطابق فى نتائجها دائماً بعد ما أثبت ذلك عالم الألمان (هيزنبرج) وإزاء هذا وإزاء ما لوحظ من انتقال كهارب وإشعاعات من ذرة لأخرى بلا ضابط ولا قاعدة محتومة سقط مذهب الحتمية فى الكون كما تصوره أصحابه أو مال نحو هاوية السقوط .

وإذا كانت هذه هى حال القوم فلماذا كل هذا التبجح الذى أصبح طابعاً لهم وعلماً عليهم .

ولماذا يتميزون به فى كل زمان ومكان ؟

فقديماً قالوا لموسى النبى نريد أن نرى الله جهرة رغم كل معجزاته .

ومن بعده ألحوا على المسيح — رغم كل ما رأوه — أن تنزل عليهم مائدة من السماء . إنهم كذلك خلقوا ، وعلى العناد تمرسوا ، وبين الأنغام الحلوة لابد من نغم نشاز، فضحهم القرآن وصورهم عندما قال : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين . ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون .

أما فى زماننا . وبعد أن ابتعد العلم بفروعه عن تربته الأصلية وهى الفلسفة فقد انتشرت ظاهرة التخصص والعزلة العلمية إلى آخر المدى وأضحينا نسمع عن

الكيمياء العضوية وغير العضوية . وانتشرت من علم الطبيعة وحده مذاهب متعددة تتباعد وقلما تلتقى . وتمزق الطبيب إلى عدة أطباء وربما تفرغ طبيب الحنجرة لدراسة اللوزة وحدها ، وتفرغ طبيب الأنف لدراسة المنخر الأيمن وحده !

وكان من نتائج هذا التخصص الشديد أن ضربت على العلماء أقبية مظلمة وضاقت بذلك آفاقهم وباتوا فى عزلة عن ملحمة العلم فى مجموعها فلم يعد هناك تطلع إلى دراسة أفقية فى أى مجال .

وكان طبيعيا — وقد أحسوا بعزلتهم عن الثقافة الأفقية وتيارها العام — أن يحاولوا التعويض عن ذلك بأية ضجة يحدثونها فى أى مجال ذى طابع عام ، وهنا تلعب الأمزجة والطبائع دورها فى اختيار هذا المجال وتحديده. فقد يكون السياسة أو الأدب أو الدين والإلهيات . . الخ .

ولكن الجهد لا يسعف دائماً عندما يريد صاحبه أن يضرب فى اتجاه عام بعد طول التمرس على مهنة محددة ، لأن ذلك يحتاج إلى جولة أفقية تأباها طبيعة التخصص الذى يندفع فى اتجاه رأسى يحدد سماته ويحصره فى لون من الألوان.

وهنا يحدث السخط العام وتتكون الشرارة المدمرة التى تختار لها — بحسب المزاج أيضاً — هدفها الذى توسعه هدما ، وكان هذا الهدف فى أوربا تحطيم مقدسات العصر الوسيط الذى حمل له العلماء فى عصر النهضة وما بعدها أسوأ الذكريات .

ولقد شهدنا جولاتهم وضرباتهم فيما تقدم ، وسنرى فيما يأتى من الصفحات ورأيناها كيف كانت خليطا بين حق وباطل ومتفاوتة بين ضعف وقوة ورأيناهم كيف تخطوا مجالاتهم وحشروا أنوفهم فى كل شىء كأنهم يعلمون كل شىء .

نضيف إلى ذلك أن العكوف على التجربة وكثرة الإحالة على الحواس لابد أن تعمل عملها فى إماتة كل المواهب والاستعدادات التى يتمتع بها سائر

الناس ماعدا هذه الحواس فيضخم شأنها ويتعاظم كل ما يأتى عن طريقها ويتضاءل كل ما يأتى عن المصادر الأخرى ، فضلا عن ضآلة أو ندرة الاطلاع على الألوان الأخرى من ثقافة الإنسان .

ونحن لا ننكر فوائد التخصص العلمى ولا نجحد مزاياه ، وإن كنا مع من يأخذون عليه أنه حركة محدودة ومسيرة طولية أو رأسية تغفل كل ما يحيط بها وتجهل ما عداها من مميزات جانبية أو أفقية مع أن العالم والطبيعة بكل أجزائها جسد واحد يتلاقى بأعضائه على شد ومنسجم وإن تعددت نغماته وأصواته ، ويعزف قطعة موسيقية كاملة لا تستطيع الأذن أن تحس حلاوتها أو تعرف مقامها دون أن تسمعها دفعة واحدة .

وإن هذا التمزق الشديد يجب أن يكون إلى جانبه وحدة متكاملة تأخذ من كل جانب بطرف . فإنك لو سألت طبيباً واسع الأفق عن سبب الصداع فى رأس الإنسان مثلا لقص عليك قصة طويلة وعرض عليك طابوراً هائلا من الأسباب والعلل التى تسبب هذا المرض بينما يقف بك طبيب الأنف أو طبيب العيون أو طبيب الأسنان المتخصص جداً عند سبب واحد يتعلق بمهنته ويمت بسبب إلى تخصصه .

ولو فرضنا أننا أمام جريمة قتل لا يجد المحقق سبيلا إلى الإتهام فيها مع أنه يعرف المجرم ويعرف أنه ألقى السلاح بمكان مجهول ولا بد من حيلة ليعثر عليه ، هذا المحقق يستطيع — إذا كان يعرف شيئاً من علم النفس ووظائف الأعضاء — أن يضع يده على نبض المجرم ويذكر له مشدداً جميع الطرق التى يتوقع أنه تصرف بها فى إخفاء هذا السلاح ويصل بهذا العمل إلى ما يريد ، وذلك بعكس محقق عاش أيامه بكلية الحقوق مكفياً على حفظ الملازم التى تقررت عليه دون أن ينظر فى أى شىء آخر .

هذه بعض عوامل التزمت الذى يصيب أكثر العلماء المتخصصين فتراهم

وقد لبسوا مسوح المترمتين من رجال الدين ، لأن الأخيرين هم أيضاً من ضحايا التخصص الشديد الذى يسد عليهم منافذ الأفق ويعزلهم عن حقيقة الدين والدنيا معاً ، ومن أجل ذلك نرى هذين الفريقين من البشر على خلاف شاسع لا يلتقيان أبداً .

* * *

ليس يعيب هذا الفريق المتخصص جداً من رجال العلم أن يسكتوا عندما يدور الحديث حول المسائل الكبرى مثل مسألة الكون والخلق والحياة . فالعلوم التى يغرقون فيها إلى أذقانهم ليست إلا مجرد أوصاف لحالات الطبيعة حية أو جامدة ثم تفسير بعض سننها ، وليست هى التى تتعرض لحقائق الكون وأصول الأشياء . ولست وحدى من يقول ذلك ، فهذا عالم ضخم من علمائهم هو السير (أليفرلودج) الذى كان رئيساً لمجمع تقدم العلوم البريطانى بكمبردج (وعندى أنه لا يحق للعلم أن ينفى شيئاً نفياً مطلقاً ، فإن حاول ذلك أخطأ ، فليس ذلك شأنه إنما شأنه الإثبات ، وعندى شىء آخر أقوله ، إن أساليب البحث الطبيعى ليست كل الأساليب التى يمكن الوصول بها إلى الحقائق ولو كانت أساليبنا المعروفة التى نعتمد عليها) وذلك من خطبة له برئاسة المجمع وهى التى يقول فيها : « لا يزال كثيرون بين رجال العلم معادين للعلوم الدينية بسبب تطرف أصحابها الذى عانى منه أسلافنا الشىء الكثير واضطروا أن يجاهدوا ليتاح لهم البحث عن الحقائق حسب الطريقة التى أرادوها ، وكان ذلك الجهاد أمراً ضرورياً ولكن بقيت منه فى النفوس آثار سيئة أحدهما هذه الكراهية بل هذه العداوة للأمور الروحية ، فلا نرتكبن أخطاء القدماء فى معاداة الأنبياء وذوى القرائح الوقادة حاسبين أن سبيلنا هى السبيل الوحيدة لاستجلاء غوامض الكون وكل ما سواه جهل وضلال ، فإن الكون أوسع مما نظن ولا تكشف خباياه كلها بطريقة واحدة » .

وعلى ذلك فإن العلوم الطبيعية سواء كان موضوعها الطبيعة الحية

أو الجامدة لا تملك إزاء هذا الوجود المتشعب إلا الوقوف على الصعيد الذى قدر لها أن تقف عليه . فإذا إراد المتخصص أن يخوض فى غير ميدانه فقد ألقى بنفسه على أرض يجهلها وترك علمه وهيبته بعيدا على أرض تخصصه فاضحى هو وأخو الجهل سواء .

إن الطبيب لا يقوم بعمل المهندس ولا يفلح الكيميائى فى مهنة المحاماه فكيف بمن يتصدى لقضية الوجود فى جلالها ورهبتها دون أن يتزود بزاد ضخم من تراث العلم والفلسفة ، وما أبدع الفكر الإنسانى فى هذا الصدد ، وهو إذا لم يكن كذلك فلن يزيد فى عمقه ولن يقل فى ضحالته عن ذلك الطيار الروسى الذى أرسله قومه ليروا كم يؤثر جو الفضاء فى جسمه وعقله فعاد يقول لهم أنه بحث عن الله فلم يجده فى السماء . كأن هناك من قال لهذا الأبله أن الله شخص جالس فى السماء .

وعندما يصلى الفكر فى محراب الطبيعة ، وعندما يذهب بعيدا وبعيدا جدا ليلتقى بروعة الوجود وحكمة الأزل لا بد أن يعود بخير فتنمو فيه كل ملكات الوعى الكونى ويصبح فى نفسه وكأنه العالم الأكبر .

* * *

إن الواقعية المجسمة التى تجثم على حياة العلماء الطبيعيين ، وهذا التخصص والاندفاع العمودى فى تفكيرهم يلعبان دورا خطيرا فى تكوينهم العقلى ومنطقهم السلوكى حتى أصبحوا حديثا تحلو به ليالى السمر ومجالس المجون .

يزعمون أن عالما خطيرا من علماء ما بعد النهضة ولعله نيوتن كان يعتز بكلبين أحدهما صغير الجسم والآخر كبيره . فبنى لهما حجرة وأمر البناء أن يترك لها بابين أحدهما صغير للصغير والثانى كبير للكبير . وتعب البناء كثيراً فى إفهامه أن بابا كبيراً واحداً يكفى .

والطبيعى بخير ما دام يدرك أن عمله لا يتصدى لحقائق الأشياء وإنما يصف

الأشياء لاغير ، وأن غرضه كما يقول الفيلسوف راسل : وصف الظواهر الطبيعية لا تفسيرها فإذا عبرنا عن النسبية بين ظاهرتين طبيعيتين بمعادلة جبرية فقد فعلنا كل ما نستطيع فعله وإذا تجاوزنا ذلك دخلنا معرض الحدس والتخمين .

إن الآفاق الواسعة لا تنشأ إلا عن ثقافات واسعة تتعدد فيها ألوان المعرفة مع التعمق فى لون منها إذا شعر المثقف أنه أقرب إلى استعداده وأكثر ضرورة لدعم رسالته فى الحياة. وتلك مزايا لايتحلى بها الطبيعيون المتخصصون فإذا اشتغلوا بما لديهم وتركوا الكون والدين والإله فقد عرفوا قدرهم ولزموا حدهم وحينئذ فلا تثريب عليهم .

أما إذا حشروا أنوفهم فيما ليس من شأنهم فلن يظفروا بأكثر من هذا الوصف . ولهم عذرهم عندما يهدفون بذلك إلى إزاحة المركب الذى يشعرهم بالنقص والقصور. واهمين أن نعرة الإلحاد هى سمة العلم والعلماء الضخام ، كما أن تعلية الفستان فوق ركبة المرأة هى علامة التمدن والأرستقراط .

والعواطف المنحرفة هى بعد ذلك أم الكبائر فى عالم الفكر سواء فى ذلك المؤمنون والملحدون ، وهى التى طوحت بنماذج حية من العقول الضخمة إلى مستويات غير لائقة بها ، وهى التى تدفع الطبيعى إلى أن ينفى الروحيات والإلهيات بدلا من أن يتخذ موقفا سلبيا إزاءها بمعنى أنه لم يثبت لديه ، ذلك أن العين التى تبسط الرؤية على كل ما حولها لاتلبث أن تفقد الرؤية عندما يقترب من إنسانها أصبع واحد .

لقد جاءت امرأة إلى أحد فلاسفة اليونان لتقول له : إن ولدى مطلوب للخدمة العامة وأنا لا أريد له ذلك ، فهو إما أن يكون مع الباطل فتكرهه الآلهة أو مع الحق فتكرهه الناس ، فهو على الحالين مكروه . . . . فأجابها

الفيلسوف بقوله: أرسليه ياسيدتى فهو إما أن يكون مع الحق فتحبه الآلهة أو لا يكون مع الحق فتحبه الناس فهو على الحالين محبوب .

وهكذا لعبت العاطفة العمياء دورها فى نفس المرأة فلم تر إلا وجها واحدا من قضية ذات وجهين .

وليس يليق بالطبيعى أن ينساق فى غفلته إلى موقف هذه المرأة .

كان التعصب — وما زال — سدا مانعا يحول دون رؤية الحقيقة كاملة وبآثامه قامت مذابح وسالت دماء وتأخرت ثقافات واكتشافات كانت لولاه جالسة على قمة مجدها اليوم .

ولا تزال حية فى الأذهان تلك الأوهام الأربعة التى صورها (بيكون) إمام التجربة فى عصر النهضة ، تلك التى لعبت برؤوس العلماء فى عصره ، كما عبثت برؤوس الأباطرة والهراطقة فى ظلمات العصر الوسيط .

وبعـــد .

فعندما يتحدث المؤمنون عن ربهم لايلجأون إلى شىء سوى منطق العلم ، ومنطق السببية التى عاشت عليها تجاربنا ، ومنطق العلية التى عاشت فى رأس فيلسوف تكلم قبل انتشار الديانات فقال بالألوهية ونادى بالمحرك الأول ، كما عاشت فى رأس عربى يمشى خلف بعران الصحراء فقال على فطرته : البعرة تدل على البعير وأثر الأقدام يدل على المسير ، أرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ألا يدل هذا على اللطيف الخبير .

والعلم لاينسى أنه كان يوما فى موضع الجنين من أحشاء الفلسفة ، وذلك الحشد الهائل من المخترعات والمكتشفات العلمية التى تملأ واقعنا لم تكن بالأمس إلا خيالا يساور العلماء وآمالا تراودهم ، ولم يكن فرادى وأديسون وماركونى يدرون أن بضعة عمليات رياضية وخطرات منطقية سوف تؤدى إلى ذلك الإنقلاب الضخم الذى غير وجه العالم .

كانت كل هذه سبحات عاشتها الفلسفة حينا من الدهر كما عاشت فى غيرها من الروحيات والإلهيات وتحقق منها ما يمكن لنا نحن العائشين فى عالم المادة أن نلمسه وأن نراه ، وليس معقولا أن نرى شيئا ونلمسه إلا إذا كان مألوفا لدينا تعودناه من عالم التجربة وتهيأنا له بحكم استعدادنا ، فليست لدينا درجة من الاهتزازات الأثيرية التى ترفعنا إلى المستوى الذى نشاهد فيه مالا نشاهده فى مستوانا الحاضر الذى نعيش عليه فى تلك الحياة الدنيا .

وذلك قول لا نسوقه شعرا ، ولكنها مقالة العلم الطبيعى نفسه ، مقالة الاهتزازات أو الموجات التى تدور فى جهاز الأستقبال والتى تدير مفتاحه فيستقر على إحداها طويلة أو قصيرة ضعيفة أو قوية فتتجسم أوتصبح غليظة قادرة على أن تدق على الأذن أو على إنسان العين لأنها أصبحت فى درجة اهتزازية على مستوانا .

وذلك ما دفع أحد المشتغلين بالعلوم الروحية أن يقول بأنه ليس بعيداً ذلك اليوم الذى ترفع فيه سماعة لتكلم إنسانا فى عالم الموتى .

وسواء كان عالم الموتى قريبا منا فتتحقق كلمة هؤلاء الطبيعيين الذين اشتغلوا بالعلوم الروحية مثل وليم كروكس وسير أليفرلودج ووليم أوزلر ودكتور باورزوالكسيس كارليل وغيرهم ممن شغلوا مناصب علمية رفيعة وكانوا أعضاء ورؤساء بمجمع تقدم العلوم البريطانى ، أقول سواء كان عالم الموتى قريبا منا فتتحقق كلمة أولئك العلماء أو كان بعيدا عنا فتخفق المحاولة ، فإننا لانهيم فى خيال وإنما هى الحياة الفكرية التى عاشها المفكرون عندما كانت النظريات قولا فى عالم الفلسفة وعندما خرجت إلى عالم التجربة وآتت أكلها فى عصر العلم .

لابد إذن من تساوى الاهتزازات حتى يمكن تلاقى الموجودات ، ومن أجل ذلك كان إعجازا علميا من القرآن أن يقرر استحالة لمس الروح أو تصورها

لمن يعيشون فى عالمنا الأرضى ما دام يختلف اهتزازا وترنما عن عالم الروح وكان إعجازاً أيضاً أن يرد على الذين طلبوا أن يحمل الرسالة الإسلامية ملك أو ينزل هذا الملك ليكون مع صاحبها فيقول لهم : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » ويقصد القرآن بجعل هذا الملك رجلا أن يتحول الاهتزاز الملائكى إلى اهتزاز بشرى حتى يتجاوب مع أعين القوم وأحاسيسهم كما يتجاوب بعضهم مع بعض فى عالم واحد .

إذن يجب ألا ننسى أن حقيقة اليوم ليست إلا خيال الأمس . وواقع اليوم لم يكن إلا فروضا طافت بأدمغة الفلاسفة فى سالف الزمن . ومن هنا صدقت الكلمة القائلة : إن الحقيقة ليست فى ذاتها إلا خيالا ضخما .

ومرة أخرى إن السبب والمسبب وإن العلة والمعلول مفاهيم تنزل فى مكان البديهة من عقل الإنسان ومشاعره . يتمتع بها أكبر عبقرى وأكبر غبى توجد عند أرسطو وتوجد عند الحمار . إنها طبيعة من الطبائع بل غريزة من الغرائز يملكها حتى الطائر الذى يزعجه صوت أو حركة فيطير ، علما منه أنها صدرت عن شىء ولا بد له أن يطير ليتقيه .

وعلى العلة والمعلول نهضت دعائم العلم وقامت الفلسفات منذ القدم .وعليها يشيد الطبيعيون أيضاً أفكارهم عن الكون إذا حلقوا بعقولهم إلى أفق أبعد مما يعيشون فيه، وفى ملاحم الدين والعلم عاش عقل الإنسان منذ وعى. وفى كتاب الوجود كان عليه أن يقرأ ليعرف طريقه . فكتب كل هذه الصحائف الخالدة من ثقافته فى كل مجال . علما وإيمانا ، وما زال يكتب العدد الباقى من هذه الصفحات ، فالدين والعلم قصة العقل وشغله منذ القدم ، فيهما سبحاته وعليهما خطاه حتى آخر الأبد .

لكن الدين يتكلم عندما يسكت العلم ، وكثيراً ما يسكت العلم أمام معميات الحياة أمام النحل والنمل فى أعاجيبه وأعماله وأمام الطير والحيوان والأسماك فى

مجراتها وأمام الغايات التى تنطق بها الأشياء فى أوضاعها وأهدافها وعلاقاتها بعضها ببعض ، بين السحابة العابرة والروض الظمآن ، بين الشمس فى جلالها والثمرة الصغيرة خلف البراعم والأوراق ، بين تلك المخلوقات التى أعدت كلها على نسق وأعطيت وسائل عيشها داخل أجسامها أو خارجا عنها ، وألهمتها الغرائز والاستعدادات لكى تتغذى وتحتمى وتعيش ، كل هذا يصفه العلم ولا يستطيع الذهاب أبعد من ذلك ، ولكنه يسكت ليقول الدين كلمته (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت .. ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) .

والعقل الذى صحبناه منذ القدم على رحلة الوجود ما زال يلح بنا ويسأل فى مجال الدين تماما كما يسألنا فى مجال العلم .

لقد انتهينا معه فإذا نحن فى عالم قوامه التماسك العلى والترابط المنطقى فإذا صح قول الفلاسفة الذين يذهبون إلى أن العالم من حولنا ليس إلا عدة مفاهيم خلقتها عقولنا على طريقتها وأنه ليست هناك أشياء تحمل الحقيقة فى ذاتها فقد صح أن العالم فى ذاته عقل وأنه روح خالد تلاقت على عشقه أرواح المتصوفة وأصحاب المواجيد .

وإذا صح ما يقال أن لنا عقولا منبثقة من العقل الأكبر تتلاقى معه على فهم واحد جعلها تعقل الكون وتفسره فقد استوينا على الطريق وأصبح لزاماً علينا ألا نفارق عقولنا ولا ننكرها عندما نعالج أية مسألة نقف حيالها بعد أن نتزود من عالم التجربة بزاد .

وعلينا أن نرفض الرف الذى تفرضه علينا التجربة المعملية والأحاسيس المادية فإن العلوم التى نعترف بوجودها اليوم ليست إلا وليدة الفكر المتألق والبحوث النظرية التى عالجتها عقول الفلاسفة عبر التاريخ .

وعلى خطى العقل وهدى البصيرة تتغير مفاهيمنا حيال الكون . فالنجم

ليس صغيراً كما تراه العين لأن العقل يقول بغير ذلك، ومن هنا يجىء قولهم: إن رأى الشيخ خير من مشهد الغلام .

والكون عقل ومفهوم من مفاهيم النبوة المتألقة انبعث من صميم حياتنا والتى بمواكب البشر على طول مسيرتهم عبر هذه الحياة .

وندع عالما من علماء الكون أنفسهم وهو سير (جينز) يتحدث فى هذا فيقول فى كتابه (الكون الغامض) ما يأتى : —

« إننا يجب أن ننكر المقدمات التى يفترضها نقادنا من غير علم ، فالكون لا يبيح لنا أن نصوره تصويراً مادياً . وسبب ذلك فى رأيى أنه قد أصبح من المدركات الفكرية لا أكثر ولا أقل .

ويقول أيضاً : « أما الآن فالآراء متفقة إلى حد كبير يكاد فى الجانب الطبيعى من العلم يقرب من الإجماع على أن نهر المعرفة يتجه نحو حقيقة غير آلية .

وقد بدأ الكون يلوح أكثر شبها بفكر عظيم منه بآلة عظيمة ، ولم يعد العقل بعدُ دخيلا ألقت به المصادفة فى عالم المادة بل بدأ يجول بخاطرنا أن من بين واجبنا أن نحييه ونعده خالق العالم المادى والمسيطر عليه ولسنا نقصد بهذا العقل بطبيعة الحال عقولنا الفردية بل نعنى ذلك العقل الكلى الذى توجد فيه ، على شكل فكر ، تلك الذرات التى نشأت منها عقولنا » ويقول أيضاً « لا شيء فى الحقيقة يشبه الفكرة غير الفكرة . ولا بد من عقل تقوم به . فقد نقول إن شيئاً موجود فى عقولنا حين نعيه ، ولكن هذا لا يعلل وجوده فى الوقت الذى لا نعيه فيه ، فالكوكب (بلوتو) مثلا كان موجوداً قبل أن يجرى فى ظن الإنسان بزمن طويل وكان هذا الكوكب يسجل وجوده على ألواح فوتوغرافية قبل أن تراه عيون الناس بأمد بعيد . وقد حملت هذه الاعتبارات فيلسوفا مثل (باركلى) أن يقول بوجود كائن أبدى توجد فى عقله جميع الأشياء .

ويقول أيضا وأخيراً : « ونحن واجدون أن فى الكون دلائل على وجود قوة مدبرة أو مسيطرة يوجد بينها وبين عقولنا الفردية شيء مشترك ليس هو العاطفة أو الأخلاق أو تقدير الجمال ولكنه الرغبة فى أن يفكر بطريقة خير ما نصفها به أنها رياضية لاننا لانجد الآن أصلح من هذا التعبير » .

وننتهى بحديث هذا العالم الحجة إلى هنا لندمغ القوم بما هم أهله من قصور وتبلد حتى فى صناعتهم التى يعيشون عليها ويطنطنون لها جاهلين أن أكبر المكتشفات العلمية التى نعيش فى ظلها اليوم كانت شيئاً مجهولا وخافيا لايحس به القدماء ، ولايعترفون حتى بإمكان وجوده .

ولعلهم يفيئون إلى العقل ويعلمون أن له عينا أبعد نفاذا من البصر ، وأن للوجدان وعيا ومشاهد لاتطل عليها تلك النوافذ الخمسة التى يسمونها الحواس ، وأن بين مناطق الإلهام فى القلب والوجدان وبين مسابح الفكر المتألق تتراى فكرة الإله ، ذلك الجوهر المطلق الذى لايشبهه شيء ولايدركه وهم ولاتترجمه لغة من اللغات .

* * *

الصـــدفة

ظروف سعيدة فى عمر الأزل لايعلمون شيئاً عنها تجمعت ثم عملت عملها وألقت إلى هذا الوجود المضطرب أعجب مواليده وهى الحياة .

ولتكن خلية بسيطة سبحت قريبا من سواحل البحار ثم تقاسمت وتكاثرت عندما تهيأ لها مناخ الأرض ثم تعقدت تركيبا فاستوت خلقاً بدأ بالأسماك فالطير والزواحف ثم ذوات الفقار فالثدى ، وعلى قمة التطور المتواصل وقف أعجب كائن قذفت به تلك المصادفة وهو الإنسان .

هكذا يقول العلماء : ويقصون علينا قصة طويلة مليئة بالأحداث والنكبات الجيولوجية ، مسلسلة أكثرها حلقات مفقودة وأكثرها لاندرى ، ولكن الشىء الذى يصرون عليه هو أن هناك تطورا وأن هناك مصادفة حدثت فأوجدت الحياة على هذا الكوكب .

ونحن لاندرى، ولاهم يدرون أيضا ، لماذا يلجأون إلى هذا الفرض ، ربما كانت البساطة ربما كان الوضوح . ربما لأن هؤلاء العلماء أرادوا أن ينقلبوا يوما شعراء فآمنوا برأى فى الشعر يقول : إن أعذبه أكذبه !

ويطول بنا التساؤل عما ألجأ هؤلاء الناس إلى تلك الأضحوكة المبهمة فلا نجد آخر الأمر إلا أنها كلمة إفلاس أعلنها أصحابها ليتجنبوا مأزقا هم كارهوه فوقعوا فى مأزق آخر أشد ضيقاً وأكثر حرجا .

وذلك شأن القوم دائما . يزعمون أنهم يؤمنون بالواقع والمعقول فى الوقت الذى يتركون فيه المؤمنين على الأرض ليحلقوا هم فى سماء الشعر والخيال .

وهذا يصور لنا كم يعانى أولئك الناس فى حياتهم ، حيرة واضطرابا وتخبطا ، هى الدليل على أنهم غير طبيعيين وإن زعموا أنهم طبيعيون .

ومع أن الذاهبين هذا المذهب هم قلة لا يعتد بها فى العدد ولا فى القيمة العلمية ، فإن جماعة من سادة الفكر وأساطين العلم لم يتركوا المسألة المفتراة دون وقفة تكشف زيفها وتفضح سترها .

فذات يوم هب فى بلاد الإنجليز رجل يدعى (جوليان هكسلى) وكان تطوريا متطرفا يشايع الداروينية بكل ما يملك من لسان وقلم ، فقذف إلى المطابع كتابا أسماه (Man stands alone) زعم فيه أن الإنسان هو سيد هذا الكون ، أما فكرة الإله والعالم الثانى فخرافة يتسلى بها المساكين والمحرومون من بنى الإنسان .

فوقف له العالم الأمريكى (كريسى موريسون) وهو عالم أكاديمى يملأ مسامع الأوساط العلمية فى أوربا وأمريكا ، ورد عليه بكتاب أسماه (Man does not stand alone) .

ولما كان هكسلى من المهرجين وراء كلمة الصدفة فإن العالم الأمريكى لم يتركه يفلت فى هذا المجال فتناول هذه الفكرة — إذا صحت هذه التسمية — وحلل مضمونها بلغة العلم وسلط عليها نبوغه الرياضى فى أبرع أسلوب وأجمل أدب علمى يشهد له بالإحاطة والاتزان .

يقول موريسون :

« خذ عشر بنسات وضع عليها أرقاما مسلسلة من ١ — ١٠ ثم ضعها فى جيبك وهزها هزا شديدا ثم حاول أن تسحبها من جيبك حسب ترتيبها من ١ — ١٠ .

ففرصة سحب ١ ، ٢ متتابعين هى بنسبة ١ إلى ١٠٠

وفرصة سحب ١ ، ٢ ، ٣ متتالية بنسبة ١ إلى ١٠٠٠

وفرصة سحب ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ بنسبة ١ إلى ١٠٫٠٠٠

وهكذا حتى تصبح فرصة السحب بترتيبها من ١ إلى ١٠ هي بنسبة واحدة إلى عشرات بل وملايين الملايين .

وهذا مثل بسيط يبين كيف تتكاثر الأعداد بشكل هائل ضد الصدفة أو المصادفة ولابد للحياة فوق أرضنا هذه من شروط جوهرية عديدة ولابد من ترابط وتقابل على صورة مستحيلة حسابيا ولابد لتوافرها من توجيه سديد وعقل لانهائى المقدرة وليس مجرد صدفة عمياء » .

وبعد ذلك نلتق بالغاية والقصد البين فى خلق الأشياء وإعدادها بحيث تلائم دورها فى سلسلة الموجودات فنجد المسألة ، وقد تجسدت استحالتها ضد الصدفة وأمسكت بتلابيب القوم مرة أخرى .

ولكنا — حتى فى مجال الصدفة — لاتترك القوم حتى يقولوا لنا مايجب أن يقال عن أصل هذه المقابلات السعيدة لعناصر الكون ومن الذى هيأ لها فرصة اللقاء وكيف تهيأت بحيث ينتج عنها ذلك التكوين الذى يصور الحياة ويخدمها ، ثم بعد ذلك كيف لاتنحرف تلك اللقاءات ولاتختلف مع أن منطق المصادفة يقول بالمخالفة كما يقول بالمصادفة ويقول بالالتواء كما يقول بالاستواء .

ولا ننتهى من ذلك حتى تطل برأسها مشكلة ثالثة ، وهى أن الحياة فى ذاتها لا تقوم على مصادفة رأسية ولكنها ترتكز على مصادفة أفقية ، فلو اتخذنا لنا مثلا جهازا من أجهزة جسم الإنسان وليكن جهاز الهضم ، فإننا نجد الغدد والإفرازات والحركات العضلية والأبواب الانسدادية واقفة على أهبتها عاملة بكل ما يطلب منها حريصة كل الحرص على تأدية وظيفتها فلا يسعى الكبد

إلى الهضم ولا تسعى المعدة إلى إفراز البول ، كل عضو ينظر بعين إلى الآخر فلا يبدأ هذا عمله حتى ينتهى ذاك إذا كان كل منهما يأخذ عن الآخر ، وهذا الموقف النظامى والتأهب إنما يتطلب (المايسترو) الذى يشير ويضبط العمل الذى لولاه لم يكن للحياة وجود .

فإذا جاء دور المعدة هضمت اللحم وهى لحم ، وإذا انطلق فى الشرايين دم وزع الغذاء بطريقة واعية وأسلوب مذهل وعرف الخلاف الطبيعى والتباين التركيبى بين أنسجة الكبد وبين أنسجة اللحم والعظم والشعر فوقف على باب كل منها يمده بما يناسبه من ألوان الغذاء فيحدث الأخذ والعطاء دون مجاوزة ودون أخطاء .

ونترك تفصيل ذلك إلى أن نلتقى به عندما نتحدث عن الغائية والقصد فى خلق الحياة فإن لنا وقفة هناك .

ونودع أصحاب الصدفة فهم لا يستحقون الوقوف طويلا . نتركهم ، وقد ألجمهم الصمت وأعياهم السير إلى آخر المنطق الذى زعموه .

لقد سقطوا على أول الطريق حطاما . فوداعا أيها الحطام .

* * *

المادة لاتقبل الفناء

دعوى عريضة ومقالة أكبر من قائلها .

ثم لماذا يفزع منها المؤمنون ومن عقيدتهم أن الروح جوهر خالد ، ربما يزعجهم قول أصحاب المعامل والمصانع أنها إذن لم تخلق .

لغة قديمه ، ترددت فى أجواء آثينا ووجدت لها من يتقبلها من بعض فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا . وأثار البعض حولها عجاجة ضخمة وكان من أولئك البعض أبو حامد الغزالى ، وتردد فى الفلسفة الحديثة قول يشك فى فى ذلك ويعتقد أنه قد حدث فى زمن قريب نسبيا ما يمكن أن نسميه خلقاً .

وندع الآن هذا الخلط الذى لا يسنده إلا دليل واحد هو التخمين ، ثم نسأل أولئك العباقرة الذين يقفون حيارى أمام الملايين من مخبآت الوجود يدقون أبواب المجهول بحثا عن سر الطبيعة وتفاعل المادة ومنشأ الحياة .

نسأل الذين يلطمون عجزا أمام آفات الطبيعة وجوائح الأمراض المختلفة ولغز الموت .

نسألهم عن سر الإلهام وعن صادق الأحلام ، وعن غرائز الحيوان وسلوك الحشرة وهجرة العجماوات وغير ذلك . وغير ذلك ما يعج به عالمنا من أحاج وأسرار .

وعندما يعجزون عن إجابة شافيه — وهم عاجزون فعلا — نعود فنسألهم متى جاز لكم أيها الفاشلون الدعيون ، وتلك حالكم ، أن تتكلموا عن قضية هى وراء ذلك كله ، تلك قضية الوجود والعدم .

ولكنه داؤهم منذ قديم ، حارت أمامه التعاويذ والرقى وتعالى الدواء كمان نجد !

يبالغون فى أقدارهم ويتطاولون أكثر من علمهم ، وليس لهم فى كل ذلك عدة سوى القول المتبجح والادعاء العريض .

يوم بان لهم أن الشمس هى مركز المجموعة التى تحيط بها طالت السنة الملحدين منهم على الدين وتبلبلت أفكار فى الشرق كما تبلبلت فى الغرب وصاح أنصاف المتعلمين الذين يفرحون بكل شاردة وضج ضجيجهم حول الآية القرآنية التى تقول : « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم » كأن كلمة العلم دائما هى العليا وكأن تاريخ العلم لم يحفل بالانقلابات المتعاقبة فى نظرياته ومقرراته .

ولكن الشمس لم تكن واقفة ولا قاعدة كما كانوا يظنون . كانت تندفع فى الفضاء البعيد بسرعة لا يسابقها الوهم ولا يتصورها الخيال . اندفاعا لا يعرف مداه ولا تدرك غايته . واليوم يتساءلون متى وأين تستقر ثم يقولون أنها لو وقفت لحدثت الكارثة العظمى .

ويوم نادى المنادون بأن زرقة السماء التى نراها ليست إلا انعكاسات للأشعة فوق البنفسجية هلل أيضاً صغار الأحلام من أنصاف المتعلمين وراحوا يتندرون على السماوات السبع ويسألون أين هذه السماوات .

أخذوا يتلقطون ما يعثرون عليه من خرافات لبعض القدماء ولكنهم لم ينظروا إلى ما تعنيه كلمة السماء فى كتب اللغة .

ثم هب أن القرآن يعنى سماء كما تصورها القوم ، فهل تدبروا الأمر على صورة منطقية تليق بمن يتصدى للخوض فى تلك المسائل الكبرى .

هل عرفوا قولة الفلكيين أنفسهم فى هذا الصدد ؟

إنهم يقولون كلاما كثيرا يهمنا الآن جانب ضئيل منه . وهو أنهم لا يعرفون أبعد من جزء على مائة من مجرتنا التى تعتبر شمسنا ذرة منها ، وعليهم أن يقطعوا ملايين السنين بسرعة الضوء حتى يعرفوا شيئا عن بقية المجرات وحتى يقال أنهم عرفوا قدرا لا بأس به .

والسماء الأولى لابد أن تكون بعد ذلك كله لأن كل ما نراه من النجوم ليس إلا زينة على صدرها بدليل النصوص القرآنية نفسها «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح .. إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب» فبأى عقل بعد ذلك نحكم بوجود السماء من عدمه ونحن لم نصل بعد إلى ما هو دونها ؟

لقد قيل أن السماوات هى الشهب والسدم والنجوم ..... الخ وكل ذلك لا قيمة له ، وإنما هو اختلاق سببه التأثر بالتيار العلمى الإرهابى الذى سبقت الإشارة إليه .

وأقرب من ذلك كله أن السماوات هى اهتزازات أثيرية أعلا من اهتزازات عالمنا المادى تتداخل معنا فيه ولا نراها . وهو جائز علميا ما دام هناك اختلاف فى درجه الاهتزازات كما تتداخل الأمواج الأثيرية على درجاتها فى جو واحد هو جو المذياع أو آلة الاستقبال .

والقرآن يساير هذ الفكرة عندما يذكر السماوات بعد ذكر الموت مباشرة فى كثير من المواضع . إذ معنى ذلك أن الموتى عندما يصيرون بأرواحهم إلى عالم الشفافية يصبحون فى نفس الدرجة التى تمثل السماوات .

بل وعن ذلك الفهم تستقيم فكرة وجود جنة عرضها كعرض السموات والأرض ..

أما الذين يترقبون الوصول إلى سماء من النوع الذى يريدونه فعليهم أن ينتظروا يوم يسافر الإنسان فى أعماق الفضاء بسرعة الضوء . فإن أمكنه ذلك فعليهم أيضاً أن يظلوا فى انتظارهم إلى يوم يمكن أن يطول فيه عمر الفرد حتى يصل إلى ملايين السنين .

ونعود إلى القوم لنراهم وقد تضاءل غرورهم وتهدمت صوامعهم تحت وطأة حدث تحطيم الذرة وانقلاب الفكر الطبيعى رأساً على عقب .

لقد دوت فى سماء الفلسفة القديمة نظرية تقول : إن الوجود مجرد أعداد

ونغم . وتهكم المجسدون طويلا على هذا الإلهام الخطير . وراحت نظرية الجوهر الفرد تشق طريقها عبر تاريخ الفكر الإغريقي وغير الفكر الإغريقي إلى أن لاقت نظرية الجوهر الفرد مصرعها وكان عصر الانقلاب الذرى فوقفنا على عتبة عالم من القوة والإشعاع . عالم من المعنى والخيال ، نطل عليه فى رعب فإذا هو يختلف عن عالمنا كله، سوى هذه الدورة العجيبة التى تدورها الإلكترونات حول نواة الذرة فتحكى قصة الشمس بما حولها ولكن بسرعة يقصر دونها الهول الأكبر ، وجود لم يكن يدرى به أحد ولا نملك أمام منطقه إلا أن نتوقع وجود عدد آخر من العوالم تتداخل معنا وتفسر الآماد البعيدة من وجودنا وتؤكد كل شىء تحدث به الدين من أرواح ومن جنة ونار وسماوات أثيرية لا ندركها إلا عندما تتسامى بنا هزاتنا ونبلغ بأسرار خلقنا ذبذبات معينة تنتقل بنا إلى الشاطىء الآخر من هذا الوجود الكبير .

وبعد ذلك لا نزال نسمع من يقول أن المادة لا تفنى ولا يوجد غيرها فى ذلك العالم . ولا نزال نسمع من بين المجسدة من أولئك الطبيعيين من يطالبنا بأن نقف عند المادة ولا نتعداها لأننا لو افترضنا خالقا لها فعلينا أن نجيب عن سؤال آخر : ومن خلق هذا الخالق ؟

ينتهون إلى هذا الموقف ولا يسألون أنفسهم لماذا استساغوا مادة بغير خالق لها ولم يقبلوا إلها بغير خالق يخلقه .

كم أنت غير طبيعى يا منطق الطبيعيين !

ثم ماذا ؟

ثم إن الكون يتسع أمامنا بسرعة مذهلة ، إن عملية الخلق لا تزال مستمرة ، هكذا تقول آخر النظريات ومعها النسبية المشهورة ، وتلك صفعة يترنح تحتها منكرو الخلق ، وصفعة أخرى أشد وأنكى إذا سمعوا الآية (والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون) .

وأخيراً وليس آخرا يتساءل العلم عن مادة (الأيدروجين) مالها تفد إلى عالمنا منذ القدم ومن أين تأتى ؟

ومصدر التساؤل أن هـذا الغاز يتحول إلى (هوليوم) ولـكنه لايرجع ولا يقبل التراجع إلى طبيعته الأولى . ورغم ذلك فإن نسبته فى الفضاء لاتنقص ، ومعنى ذلك أن تعويضاً يرسل إلى عالمنا من حيث لانعلم ، فإذا افترضناه قادما من عوالم مادية أخرى فإن التخلخل لابد أن يصيب هذه العوالم فتحتاج إلى مدد هى الأخرى .

إذن لابد أنه يحدث عن طريق الخلق ومنذ ملايين السنين ، أى منذ الخلق الأول الذى أخرج إلى الوجود ذلك العالم .

وفى صفحات سبقت عرضنا كلمة للفيلسوف الإنجليزى (برتراندراسل) فى هذا الصدد ورأينا كيف وصل إلى اعترافه بوجود خلق مستمر لهذه المادة التى يعتبرونها اليوم أصل الكون ، ولـكن الرجل يأبى أن يستعمل كلمة (الخلق) لأنها تحمل معنى ميتافيزيقيا ! ونقول له : وإنها بعد ذلك لتحمل إعجازا قرآنيا رائعا فى دلالته العلمية عندما يقول (يزيد فى الخلق ما يشاء) .

ألم نقل أن مقالة الملاحدة تأبى دائما إلا أن تكون أكبر من قائليها ؟

ألم نقل أنهم أعجز مايكون العاجزون عن فهم ما بين أيديهم وتحت أنوفهم من سنن الكون والحياة ؟ .

ورغم ذلك يمطون رقابهم ويتحدثون عما وراء العقل البشرى وما بعد طاقته وقواه .

* * *

الشرور والمظالم

إعتراض قديم جداً . عاش فى أذهان الطبيعيين والمعطلين ، كما عاش فى أذهان الفلاسفة القدامى والمحدثين ووجد له مكاناً أيضاً فى هواجس المؤمنين ولكنه لم يقف دون التدين والاعتراف بوجود الإله

وكان لكل من هؤلاء موقف إزاء المشكلة .

فالعقول العشرة التى لعبت دوراً فى فلسفة الإغريق والتى تسربت إلى الفلسفة الإسلامية لم تكن إلا محاولة لإبعاد فكرة الشر عن الإله وإن كانت قد تدخلت أسباب أخرى مثل اعتقاد الفلاسفة أن اشتغال الجوهر الكلى أو الإله الأعظم بجزئيات الكون يشوبه شبهة عدم الكمال .

وقديماً عبد الناس الشر ممثلا فى القوة فكان لهم آلهة أقوياء وآلهة حرب مثل إله اليهود . كذلك عبد الناس الخير بصورة أو بأخرى .

وتطورت العقائد ، وظهرت الديانات، ولبست المسألة ثوباً جديداً فى ظل هذه الديانات كما أخذت لها طابعاً هو الأثنينية المشهورة فى عبادات الصين والفرس والهنود القدماء .

هذه الفكرة ذات خطر لا ينكر . فقد لعبت دوراً بارزاً فى كل مناحى التفكير الإنسانى وكل معتقداته فلم يكن سبب الأثنينية التى طبعت عقيدة الشرقيين القدماء إلا محاولة لتنزيه الإله بوصفه بالخير المحض . وصيغت فى ذلك أساطير متعددة تراها فى كتب تلك الديانات عند زرادشت وعند مزدك ومانى وغيرهم ممن لعبوا دوراً فى عقائد الشرق القديمة والحديثة على السواء ، ولكنها لم تترك غباراً كالذى تركته فى سماء المعارك الحامية التى دارت بين علماء المسلمين .

والحق أن المعارك التى دارت رحاها على صعيد الثقافة الإسلامية كانت من طراز آخر تعددت جوانبه وهبت عليه رياح من الفلسفة والمنطق وتداخلت فيه آثار الديانات القديمة التى حملها معهم أولئك الذين دخلوا الإسلام فى عصر دولته الكبرى ، وكان لترجمة آثار الإغريق وعلماء الإسكندرية وفلاسفتها أكبر الأثر فى إلهاب الشرارة التى لم تهدأ نارها حتى توارى عصر ازدهار الفلسفة فى بلاد الإسلام .

وانطبع الجدل حول هذه الفكرة بطابع الجبر والاختيار الذى لعب فيه الدور الأكبر طوائف المعتزلة والأشاعرة أو السنية ، وتفرعت عن ذلك فروع أخذت دوراً عنيفاً فى حياة المعتزلة وانتهت بهم إلى مأساتهم الكبرى أيام المتوكل فأفل نجمهم من سماء الفكر ، وبكاهم قوم يعتبرونهم أكبر حركة متوثبة عاشها الفكر الإسلامى الذى ركدت ريحه بموتها وسدت مسالكه وأغلق فى وجهه باب التحرر والاجتهاد .

والواقع أن هذه المعركة الإسلامية لم تكن سوى جانب من الصورة التى تمثل المشكلة الكبرى .

ذلك أن لها جوانب متعددة دار حولها الجدل حتى بعيداً عن العقيدة ، وشغلت المفكرين قديما وحديثاً وكانت بحق أكبر اعتراض وأقواه حتى ملأت جوانب خصيبة من فلسفة مفكرى اليهود والمسيحيين أمثال اسبينوزا وتوما الأكوينى ، وتلونت بطابع إلحادى عند قوم كما أخذت طريقاً تصوفيا عند آخرين ، ولا تزال شغل الكثيرين حتى اليوم .

ويحملنا بساط الريح عبر قرون مضت لنشهد المعركة بين المعتزلة وخصومهم فى الخير والشر ، وفى القضاء والقدر ، ثم نعود إلى جماعة المحدثين لنرى ما عندهم فى هذا السبيل .

هناك خير ، وهناك شر ، وهناك أعمال صالحة وأخرى غير صالحة ،

وهنـاك اتفاق بأن الخير من عند الله ، خلقه ورعاه ، ولـكن من أين يأتى الشر والله خير محض ؟

هل هناك شريك قذف بالشر إلى هذا العالم ؟ أم أن الإنسـان — وهو الذى يعيش فى محيط هذه الدنيا ويؤثر فى تياره بإرادته — هو الذى أوجد الشر .

إحتكت عقول المسلمين بهذه القضايا أواخر العصر الأموى ، وقامت فرق تناضل عن مذاهب متعددة .

فمعتزلة شق طريقهم واصل بن عطاء وأسس مذهبهم أبو الهزيل العلاف . ثم جبرية يتزعمهم جهم بن صفوان ، وقدرية يتزعمهم معبد الجهنى ، وأشعرية يتقدمهم الحسن الأشعرى .

وظلت المعارك مستمرة حتى بلغت قمتها أيام الخليفة المأمون ، وزاد من حدتها وقوف الخليفة إلى جانب المعتزلة ، ثم دارت الدائرة عليهم أيام المتوكل وبين هذا وذاك سالت دماء وقامت فتن ضخمة منها خلق القرآن التى أوذى من جرائها علماء أشهرهم أحمد بن حنبل السنى .

ويهمنا من مبادىء المعتزلة الخمسة مبدأ العدل . فعليه دارت رحى النضال الفـكرى حول الخير والشر فى أفعال الإنسان .

وقد أمد القرآن والحـديث كلا من الفريقين — السنية والمعتزلة — بالحجج والأسانيد ، أما الحديث الذى عارض المعتزلة فلم يكن أمامهم سوى إنكار صحته والتخلص منه ، رأما الآيات التى عارضتهم فقد تحايلوا عليها تارة بالمعانى اللغوية المتعددة لبعض الـكلمات وتارة بالمجـــازات والتشبيهات والـكنايات ؛ فإذا لم تسعفهم اللغة وأساليبها لجأوا إلى التأويلات والحجاج المنطق الذى تمرسوا عليه فى نضالهم الطويل ضد مهاجمى الإسلام .

ولا نريد أن نتطوح مع القوم أو نأتى على كل أقوالهم فذلك أمر يطول

ولكنا نكتفى بالخطوط العريضة فى تفكيرهم ومواقفهم أمام الآيات القرآنية ولاسيما المعتزلة باعتبارهم أنصار العقل ومجديه فى تلك الحقبة من تاريخ الإسلام .

لقد آمن القوم بوجود الشر وأنه من خلق الله . ولكنهم لم يعرضوا على بساط البحث قضية خلق الشر فى الكون كما عرضتها الفلسفة . ولعله قصور أو تحرج ، فالمعتزلة مهما قدسوا العقل ومشوا فى ركابه لايزالون داخل الإطار الدينى . ولا نعتقد من السهل عليهم أن يخوضوا قضية كهذه وهم الذين نزهوا الخالق حتى عن صفاته تحرجا من وجود قديم سوى الله .

ولقد اشتهر عن القوم خمسة مبادىء أو خمسة أصول صدر عنها كل جدلهم الفكرى ، منها مبدأ العدل وهو ما يهمنا فى هذا المقام .

لقد نزهوا الإله عن جبر خلقه على أى فعل ، وذلك أخلق بالعادل وأولى بالغاية التى هدفت لها الرسالات السماوية وهى إطلاق حرية الإنسان فى فعله لكى يضع نفسه فى الموضع الذى يريد : فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وخلاصة الاتجاه عند هؤلاء المعتزلة — ويسمون القدرية أيضاً — أن الله علم وقدر أزلا ، وأفعاله كلها خير . أما الإنسان فلا يريد الله لأعماله أن توجد أو لاتوجد وإن كان يعلمها أزلا ويجزى بها عدلا بما منح الإنسان حرية فى أن يفعل أو يدع .

حقاً إن الله خالق كل شىء ، ولكن الخلق فى أفعال الناس هو التقدير لا الإيجاد وذلك معنى من معانى الخلق كما يقول أبو مسلم الأصفهانى المعتزلى .

أما المرتضى المعتزلى أيضاً فيقول : خالق كل شىء مما يصح أن يوصف بأنه مخلوق ، وليس كذلك أفعال الإنسان ، كما تقول أكلت كل شىء ، مما

يصح أن يكون ما كولا ويؤيد هذا المعنى ماجاء فى هذا السياق : « وقد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » ، ومثل آخر : « أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون » أى ما تعملون فيه من الحجارة أو الخشب . وعلى هذا النسق يفسر المعتزلة ما يستند إليه أهل السنة فى تقرير مذهبهم .

ومن المعتزلة من يقول إن الله لايخلق إلا الخير فإذا واجههم القرآن بقوله : (أعوذ برب الفلق من شر ما خلق) قرءوها (شرٍّ) واعتبروا (ما) هنا نافية أى من شر لم يخلقه الله . وتلك مغالاة يلقاها أهل السنة بالإنكار والاستنكار بل إنها تحريف فى القرآن كما يقول ابن المنير على هامش الكشاف . ومن تأويلاتهم اللغوية أيضا (جعلنا) أى بينا ، وذلك فى الآية « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها » كما فسروا اللام فى (ليمكروا) بأنها لام العاقبة والصيرورة مثل (التقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا) .

وأمثال هذا كثير . ويضيف المعتزلة أن الله لا يحط من قدره أنه ترك للإنسان حرية وقدرة على العمل والترك مادام قادرا على التدخل لتحديدها أو منعها عندما يشاء وعلى ذلك نفهم (فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) وما على ذلك النسق من الآيات .

وأما الآية : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) فقالوا : وجدنا قلبه غافلا عن ذكرنا ويستشهدون فى ذلك بقول عمرو بن معديكرب لبنى سليم : « قاتلناكم فما أجبناكم ، وسألناكم فما أبخلناكم ، وهجوناكم فما أفحمناكم » . أى فما وجدناكم جبناء ولا بخلاء ولا مفحمين أى عاجزين عن الرد .

ويذهب أحدهم وهو القاضى عبد الجبار المعتزلى إلى أن الله يضل من إستحق الضلالة بكفره وفسقه نحو (وما يضل به إلا الفاسقين) ، (ويضل الله الظالمين) ، (ويضل الله من هو مسرف كذاب) .

ويتصل بهذا حديثهم فى الوعد والوعيد بحسبان أن عذاب الله شر ، ونجد أهل السنة هنا أجمل قولا وأكثر تفاؤلا من المعتزلة ، فالأخيرون يرون أن ثواب المطيع وعقاب العاصى واجب على الله ، وذلك تطبيق لأصل العدل عندهم . أما أهل السنة فهم عند قول الآية (قل يا عبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) ، ويرون أن الوعد حق العباد على الله وهو أولى بالوفاء ، أما الوعيد فحق الله على العباد وهو أولى بالعفو والكرم ، والعرب لا تعده عيباً ولا خلفا للوعد أن توعد بالشر ثم لاتفعله ومن هذا قول الشاعر :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

تلك صورة سريعة من نضال الفكر الإسلامى حول الخير والشر ، وهى - كما ترى - لا تخرج عن إطار صنعته العقيدة ولاتتناول المسألة من أفق أكثر اتساعا كما تناولتها الفلسفة وكما استغلها الملاحدة فى كل العصور .

* * *

تختلف النظرة إلى الشر باختلاف الأمزجة وطبائع الأشخاص ، وباختلاف نظرتهم المتشائمة إلى الحياة ونظرتهم المتفائلة ، تماما كنظرتهم إلى كل شىء .

وفى الشعوب منذ القدم فروق واختلافات فى عاداتها وتقاليدها ونظرتها إلى الأمور بل ونجد هذا كله فى الشعب الواحد .

هذا جانب من الحياة ، يأخذ به أهله دون فلسفة .

وفى أعماق الفلسفة القديمة عاشت جماعة السوفسطائيين فأنكرت كل شىء وكفرت بكل شىء ، لم تفرق بين حق وباطل ، بين خير وشر ، بين صدق وكذب ، حتى بين حر وبرد أو قريب وبعيد . كل هذه أشياء نسبية وكلها تخيلات .

وعاش فى الشرق والغرب متصوفة وزهاد فآمنوا بكل شيء على غير ما يرى الناس حتى قال قائلهم :

يارب جوهر علم لو أبوح به   لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى   يرون أقبح ما يأتونه حسنا

استوت عندهم الأمور ، ليس هناك صديق أو عدو ، ليس أسود ولا أبيض كل الأشياء سواسية فى طبيعتها وفى حقيقتها . أصلها واحد هو الحق وما يراه الناس من خلاف بينها ليس إلا خداعا ووهما .

لقد صار قلبي قابلا كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف   وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت   ركائبه فالحب دينى وإيمانى

كانت لهم أحوال وصدرت عنهم أقوال أعجبت قوما واغضبت آخرين ، وعندما نلتفت إلى أحوالهم وننظر اليوم فى أقوالهم نقف لها وقفة طويلة ولا ندعها تمر دون أن نتأملها ودون أن نشيعها بنظرة حائرة لا ندرى أهى نظرة إعجاب أم هى نظرة استغراب .

فقديما قالت الفلسفة مقالة المتصوفين فى ثوب آخر ، وحديثا قالتها أيضاً ورددها من ورائها العلم : هذا الوجود المتجسم ليس إلا خيالا ووهما .

هذا الوجود إعداد ونغم .

هذا الوجود المتعدد الرؤى ليس إلا اختلافا فى كية المادة وكثافتها وفى وضع الذرات وفى تركيبها وهيكلها .

هذه المادة ليست حقيقة فى ذاتها ، العقل هو الحقيقة ، وهو صانع المادة ومصورها كما نراها ونشهدها .

بهذا وأكثر من هذا تكلم الفلاسفة القدامى والمحدثون من طراز

فيثاغورث وبركلي وكونت ، ودع عنك نيتشه وكيركجورد فإن لهما غاية أخرى .

أما العلماء فقد طوحت بهم الكشوف الذرية إلى دنيا العجائب ، ولم تعد فى نظرهم غير سلسلة طويلة من الرياضة العليا . وبعد ذلك فهى وهم يجاهدون فى ترجمته إلى كهرباء أو قوة أو إشعاع .

وهؤلاء العلماء وقفنا معهم طويلا فيما مضى من صفحات فنغادرهم الآن وقد كدنا نشك فى علمهم ونحسبه شعرا .

ولا بأس من أن نسمع من الفيلسوف العالم برتراند رسل كلمة توديع يقولها فى كتابه (ألف باء النسبية) : « وأنت حين تقف على الأرض تكون خاضعاً لقوى كهرومغناطيسية ذلك لأن الإلكترونات والبروتونات المجاورة لقدميك تمارس قوة طاردة على قدميك كافية للتغلب على جاذبية الأرض ، وهذا ما يمنعك من السقوط خلال الأرض التى وإن تكن تبدو صلبة إلا أنها فى معظمها مكان خاو . . ! » .

* * *

شعر هذا ، أم هو فلسفة وعلم ؟ .

لك ما تشاء ، ولكن لا تنس أنها ثمرات فكر له خطره ، ونتاج أدمغة قوية يقوم عليها وينسب إليها تراث هائل من مواريث فكر الإنسان .

ولا تنس أيضاً أننا عرضناه لنرى ما إذا كان هناك فرق كبير بينه وبين شطحات المتصوفة . وهل يذهب هؤلاء المتصوفة وحدهم وعلى ظهورهم ما حملهم الناس من أوزار وآثام .

ونعود إلى الخير والشر ، وإلى الحق والباطل ، ما مكان هذه المعانى بين كل هذا الركام الهائل من شطحات العقول ؟

إنهم لا يريدون لها مكانا ، إنها شريدة تأوى إلى أى مكان . إنها نتاج العقول والطبائع والأمزجة ، نتخيل هذا شرا فيكون شرا ونتخيله خيراً فيكون خيراً .

فما موقف المؤمن من هذا كله ؟

لا يسع المؤمن وهو بصدد البحث عن معنى الشر فى هذا الكون إلا أن يطرح جانبا ومؤقتا ما يقوله العلم والتصوف وجانب من الفلسفة ، وهو أن الوجود حقيقة واحدة وليس أشياء متعددة .

فالواقع أن الشر موجود نلمسه ونتعامل معه ونعانيه .

ولكن أى شر هذا ؟

ربما كان نسبياً ، وهذا معقول ، أى أن ما يراه البعض شراً قد يراه الآخرون خيراً ومن أجل ذلك تختلف مظاهر الحياة وتتباين فى كل أنحاء الأرض ، وتلك الخلافات والاختلافات كثيراً ما تأخذ شكل العقائد وتدفع أصحابها إلى الموت فى سبيلها. إنها فى نظر أصحابها الخير كل الخير وما دونها شر يجب أن يزول .

فالأمريكى مثلا يحارب من أجل المال ورأس المال ، بينما الفقير الهندى لا يبغى سوى الحرمان مذهبا يتذوق حلاوته ويستعذب فيه العذاب . وهذا عالمنا يضطرب بالمذاهب والاتجاهات ويتعسكر على جانبيه كتل ضخمة من الفكر الاجتماعى والاقتصادى ولا يريد أن يلتقى أبداً رغم غناه بالعقول المفكرة والقيادات المرشدة ، وكل يعتقد أنه على حق وتدور من أجل ذلك حروب وحروب .

وأمام تلك الأهواء المتعددة التى تتفرق بالناس يأتى الدين من جهة محايدة لا يغالبها الهوى ولا تخضع للمؤثرات فيقرر الحق خالصاً ويمضى بقوانينه شامخا فوق تلك النزعات والأهواء .

تلك نظرة مجردة نلقى بها على منظر عام .

ولكن هناك من ينزلون إلى مسائل جزئية وإلى أفق أقل اتساعا فيسألون عن الذباب مثلا ما فائدته ، إنه ضرر محض ، وكان ينبغى ألا يخلق.هذا مثل من أمثلة الشر عندهم ، وكم لهم فى هذا المجال من أمثال .

ولكن أيمكن أن يوجد الذباب لو أن النظافة كانت دستوراً مطبقاً فى كل مرافق الحياة ؟

إن بلاداً كثيرة تعيش الآن من غير ذباب ، فقد أخذت على نفسها أن تنظف مرافقها وحياتها وأن تعمل على إبادته .

والتطبيق صحيح وعام على كل الآفات والحشرات ، أى أن الإنسان هو الذى يسمح لها بالوجود وهو الذى يستطيع أن يلقى بها إلى العدم .

الإنسان المؤمن نظيف لأن النظافة من الإيمان .

والإنسان المؤمن متطهر أيضاً لأن الله يحب المتطهرين .

والإنسان المؤمن تقى ومن التقوى أن ندفع الشر ونتقيه أو نبعد عنه ونغنى له !

أما غير المؤمن فلا يعنى بشىء ولا يتقى شيئاً فإذا أصابه شر عاتب القدر .

أما النوع الخطير من الذباب وهو (تسى تسى) فقد حصرته الطبيعة فى ركن قصى من العالم لا يعيش فى غيره ، ركن مهجور .

وكان المنطق لا يأبى أن يعيش هذا الذباب الخطير فى العالم كله . ولكنه التدبير فى الطبيعة والقصد فى الخلق ومنهما يقوم الدليل على العناية الكبرى وهيمنتها فوق هذا العالم .

ونقيس على ذلك كل ما يثار من قصة الشر فى هذا العالم .

حتى الفقر والحرمان فهو من صنع الإنسان والمجتمع ، هو اختلال مصدره الأنانية وقسوة الإنسان على أخيه وهو ما حاربته ونزلت لتقضى عليه شريعة السماء .

الإنسان إذن هو الظالم والمظلوم معاً .

وذلك دليل على نقصه وحاجته إلى هدى السماء .

ونذهب إلى أبعد من ذلك ... المرض والموت .

ربما كانا معاً مشكلة المشاكل التى يثيرها المعترضون على وجود الشر فى هذا العالم .

أما الموت فليس شراً ، إنه عدم حياة ، رحلة هادئة ومرحلة نجتازها إلى عالم أرقى وأبقى ، وسنة الحياة تقضى بأننا نسير دائما إلى ما هو خير ، نعرف هذا عندما نرى هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها من سعة وجمال ، ثم نقارنها بما كنا فيه من عدم ، ثم من سجن بغيض بين أحشاء الأم وكل ما تحتويه تلك الأحشاء ، وليس معقولا أن الإنسان الذى اقتضى ترقيه وتطوره ملايين السنين يلقى أخيرا فى سلة المهملات كما يقول الفيلسوف محمد إقبال ، فلنمض إلى بقية الطريق وعلى شفاهنا ابتسامة الرضا ، فليس عبثاً ما يقال إن الموت ولادة ثانية وليس عبثا ما يقال إننا نتكون فى هذه الحياة كما يتكون الفرخ فى بيضته لينطلق بعد ذلك إلى عالم أوسع .

وإننا مع ذلك لم نصنع الحياة الدنيا لأنفسنا حتى نشكو ظلم من سلبها منا إن الذى أعطاها هو الذى أخذها ، وليس من حقنا أن نسأل من يملك المال لماذا أتلفه .

ثم ما هى الحياة ؟

شىء يطول فيكون منه السأم والملل .

ولقد سئمت من الحياة وطولها   وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ذلك لأننا فى ثوب الطبيعة المتغير وعبثها الثقيل ، وعلى الإنسان أن يخلعه ليستريح .

وفى ذلك عزاء لمن حرم ، عزاء له إذا نظر إلى من سلبه حقه لأنه لا بد تاركه يوما إلى الموت ، وعزاء إذا نظر إلى نفسه وعنائه لأنه لا بد مستريح يوما ، واللقاء على موعد لا بد آت ، يستويان فيه مصيراً وحرمانا ، وعند الله تجتمع الخصوم .

وقديما نظر إلى هذه الحقيقة رهين المحبسين أبو العلاء فقال :

بلوت أمور الناس من عهد آدم   فلم أر إلا هالكا إثر هالك
إذا كان هذا الترب يجمع بيننا   فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

بقى المرض . . .

فما هو المرض ؟ . .

إنه خلل فى جهاز الحياة ، قد يأتى بإهمال وجهل ، وقد يأتى دون إهمال وجهل لأنه سنة الوجود — كما سنشرحها — ولابد أن تأخذ طريقها مهما يكن من أمر الحياة .

هب أن إنسانا قد التقى بالهواء وهو عرقان وأصابه مرض ، فماذا حدث ؟

حدث أنه أهمل فلا يلومن إلا نفسه .

وقد يهمل فى علاجه ، فلا يلومن إلا نفسه أيضا .

ولكن الإنسان أكثر شىء جدلا ، فسوف يكابر ويسأل لماذا يكون هذا الشر ؟ !

والواقع أن هذا الشر هو الجانب السلبي للخير ، أى عدم وجوده .

فأين الخير هنا ؟

الخير هو الصحة ، وعدمه هو المرض ، وقد اختار صاحبنا بإهماله أن يكون فى الجانب السلبى ، وصفى الحساب .

والخير أيضا أن قانون الكون ونظام الطبيعة لابد أن يأخذ مجراه ، فالنار المحرقة لمن يلاصقها هى نفسها التى تنضج له الطعام وتدفع البرد وتؤدى له أجل الخدمات ، وما ذلك إلا بفضل طبيعة الإحراق .

والهواء الذى التقى به صاحبنا له أيضا طباعه ومنها ثقله وتركيبه فإذا أردناه أن يتخلى عن ثقله وتركيبه ، فقد أردنا للشراع ألا يسير ، وللنار ألا توجد ، وللدم ألا يبقى فى شرايينا لأنه بلا ثقل الهواء سوف لا يكون ضغط على دمنا فينفجر إلى الخارج وهو مايحدث عندما يبلغ الطيارون منطقة الفراغ وانعدام الوزن .

وبعد ذلك ، وعندما لا يكون للهواء وزن ، سوف لا يمشى السحاب ولا تجرى الأنهار ولا تتفتح الأزهار ولا ينضج الثمار إلى آخر هذه السلسلة المتلاحقة وكلها خير .

ونستطيع أن نتناول كل اعتراض على وجود الشر بمثل هذا التحليل وسوف لا ننتهى أبدا ، ولكننا ننتهى إلى قرار واحد وهو كما يقول الفلاسفة : ليس من كمال الله أن يغير ما سنه . فلتأخذ السنن مجراها غير عابئة بما يقوله السذج ويحسبونه فلسفة .

(ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) .

ونعود إلى أصحابنا الذين ينفون الشر ولا يعترفون بوجوده فنجد أن فلسفتهم وتصوفهم قد التقت معنا على طريق واحد ونتيجة واحدة .

* * *

الشر إذن هو الجانب السلبي للخير . ولابد فى الوجود من إيجاب وسلب لا بد من الاثنينية حتى يمكن فهم الواحد ، وتلك واحدة من البديهيات .

الظلم مثلا .. أليس هو الوجه المقابل للعدل ؟

وهل يعرف العدل إلا إذا وجد الظلم ؟ إنها قصة الحياة ونظرة العقل إلى الأشياء ، لا يفهمها إلا مثنى مثنى . ظلم وعدل ، قوة وضعف ، صحة ومرض ، حياة وموت .

إن الصورة البارعة لا تخلو من ظلال سوداء ، واللحن الساحر لابد فيه من نغم نشاز ، وألوان الحياة كلها لا تعرف خصائصها بغير الأضداد .

ترى ما لذة كأس من الماء إذا لم يكن هناك عطش ، وما لذة المائدة الفاخرة إذا لم يكن هناك جوع ؟ وإذا لم يكن كذب فليس هناك صدق ، وإذا لم يكن غدر فليس وفاء .

إن السماء إذا لم تبك مقلتها
لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

وحتى ذلك الجانب السلبى هناك من يستعذبه ويهفو إليه ، وهكذا تتحقق النسبية وتختلف النظرات إلى الشيء الواحد .

هناك من يستعذب الفقر والحرمان ويتمرد على الخير والغنى فلا تصلح له معهما حال .

إن اختلاف النظرة إلى الخير والشر كاختلافها فى الحق والباطل .

وأين الحق والباطل فى عالمنا اليوم ؟ .

إنه يضطرب بالمذاهب والاتجاهات ويتعسكر على جانبيه كتل ضخمة من الفكر الاقتصادى والاجتماعى فلا يريد أن يلتقى رغم غناه بالعقول المفكرة والقيادات الرشيدة ، فأين الحق بينهم ومن منهم على ضلال ؟

اختلافات فى كل شىء واعتقادات قوية تدفع أصحابها إلى الموت حتى التى لاتعطى أملا ولا تعد أصحابها بشىء فى السماء .

ومن أجل ذلك يذهب قوم إلى أن كل ما نراه ونتخيله شراً ليس إلا خداعا ، شىء نحبه حين نرضى ونكرهه حين نسخط ، شىء نطلبه ونسعى إليه ، فإن أصبناه فذلك خير وإن أخطأنا فذلك سهم القدر وعثرات الحظوظ ، شىء نحزن له ونبكى ولكنه بكاء الطفل عندما يضربه مربيه وكم فى قسوة الضرب من رحمة لاندركها إلا فى مقبل الأيام .

(فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) .

ثم ماذا ؟

ثم كثيراً ما يكون الجهل سبباً فى الخلط بين الخير والشر .

فالسموم لم يعد يرفضها الطب ، بل أصبح يقدمها دواء لكثير من الأمراض .

وإبر النحل أضحت تعالج أمراضا كالشهد سواء بسواء .

والميكروبات ، سل عنها المخصبات واسأل عنها إبادة الآفات ، وابحث عن أعمالها فى الأرض وأعمالها فى أمعاء الإنسان والحيوان ، ستجدها فى كل ذلك خدمات وأعمالا هى ضرب من المعجزات .

حتى الأمراض نفسها ، طالما شفيت بها أمراض .

وبعض السم ترياق لبعض   وقد يشفى العضال من العضال

صراع دائر بين الموجودات ، فيكون من هذا الصراع خير ، ومن احتكاكه شرر يتلبسه قوم فيسمونه شراً ، ويرضى آخرون فيسمونه خيراً ويتناوله العلم فيسميه نظاما يجب أن يبقى وإلا سادت الفوضى وقام دليل على عشوائية الكون .

حتى المرض الذى يسمونه شراً يجب أن يبقى لأنه قانون الإهمال والظلم كذلك لأنه قانون الجهل .

ظالم الرعية كالعقاب لجهلها   ألم المريض عقوبة الإهمال

فإذا لم تأخذ سنن الأشياء طريقها ما طار فى الهواء طائر ولا مخر فى البحر ماخر ، ولولا القوة المدمرة فى الشرارة والصاعقة ما سارت السيارة ولا طارت الطيارة ولا جرى القطار ولا كانت الحضارة ولا ساد الإنسان .

خير من الشر يأتى ، وفكر يتقلب فى نواميس الطبيعة وأسرارها ، راضياً هنا وساخطا هناك .

ملحمة دوارة الرحى تدور ، وحركة دائبة تجوب الكون وتصنع الحياة وتعلن آية الخلق وحكمة الخالق فيستجيب لها كل شىء ويسجد كل شىء .

* * *

أصـــل الدين

فسره الاجتماعيون والنفسيون بأنه حب التدين الطبيعي فى الإنسان وأنه ميراث الضعف والحياة البدائية التي عاشها فى سالف الزمان وماضى العصر والأوان .

ولكن هؤلاء السادة لم يفسروا لنا كيف بقى هذا الميراث بعد ما أصبح الإنسان جبارا فى الأرض يتحدى الكائنات قاطبة .

لماذا نسمع الكلمة الملحدة من ضعاف كأنهم أشباح ، ولماذا كان رجل مثل نيتشه مثلا قويا فى إلحاده وهو الضعيف الخائر الذى يكاد يتساقط على نفسه ضعفا وخورا ، ولماذ تدوى كلمة الإيمان والتدين من أفواه العمالقة الأشداء فى العلم والنفس والجسد ، بل كان أفلاطون الذى أعلن فلسفته المؤمنة فى ظلام التاريخ بطلا قويا من أبطال الأولمب ، بينما كان أبيقور الملحد خيالا هزيلا تعيش بين جوانحه ألوان لا حصر لها من الأمراض ،

بل إن الذين حملوا تلك المشاعل القوية وبلغوها عن السماء هم القمم الشوامخ من مجتمع الإنسان ، وهم ذوو الهمم والعزمات الكبار بين من ذكرهم التاريخ فى سجل المجاهدين الصابرين ، ألا وهم الرسل والأنبياء .

وقال قوم: إن الدين وعد جميل يتعزى به الضعفاء والمحرومون ، وهو حيلة بارعة إن دلت على شيء فإنما تدل على روح طيبة تحلى بها جماعة من المصلحين القدامى نشكر لهم سعيهم وحسن صنيعهم ، ولكن نعيب عليهم أنهم لجأوا إلى هذا اللون من الخداع الذى لا ينطلى على العقلاء فكان أن زاد الأقوياء فى طغيانهم وبقى الضعفاء فى ضعفهم واستكانتهم فى انتظار النعيم الموعود ، ولا تزال تدوى فى الآذان تلك الكلمة التى قالها كارل ماركس أكبر أبواقهم :

« إن الدين أفيون الشعوب » ...

والقائلون بهذا لا يقرأون التاريخ جيداً . وإلا فبماذا يفسرون نفسية الشريف الرومانى وهو يخلع صولجانه وسلطانه لينضم إلى مواكب المسيحية فى روما وهو يعلم كم سيطول حرمانه وكم سيلقى من عقاب الدولة ومطاردتها ، هل كان ينتظر النعيم الموعود وهو الذى كان يخطر فى جنة العيش ودنيا البذخ والمجون ؟

ثم هناك الأشقياء فى هذه الحياة الذين زادهم الشقاء إلحاداً وكفراً .

وهناك الجهلة والأغبياء والبؤساء الذين رفضوا الديانات وما تدعو إليه من نعيم مقيم .

بل هناك الديانات التى يعتنقها الملايين فى الشرق الأقصى وهى لا تعد بشىء أبداً ولا تحمل غير لمسات خفيفة من قدس الديانات السماوية ولقاءاتها بالروح ، ونستطيع أن نجد الملايين من أتباع بوذا ومانى وأمثالها ، ونجد هذه الملايين مستعدة لخوض المنايا فى سبيل مقدساتهم وشعائرهم بلا ثمن وبلا وعود من السماء .

عاشت الديانات فى كل أرض والتقت عليها القلوب حتى فى الجماعات التى عاشت بلا فن وبلا آداب وبلا حضارة وبلا نظام بل وبغير أهداف أو منى فى الحياة .

ولكنها أحاجى الحياة وألغازها وكم فى الحياة من أحاج وألغاز .

نداء خفى يلح فى طلب العقيدة والإيمان رغم ما تدعو إليه من قيود على الشهوات والغرائز ، ورغم ما تفرضه من شعائر تهد من الطبع المنطلق والعنفوان الجموح .

ترى هل كانت الطبيعة تفكر فى أن القوانين لا تجدى وأن النظم الوضعية بأنواعها لا تنفع الإنسان أمام جبروته وانطلاقه ، وأن كل هذا لا يضبط غير الظواهر البادية فى سلوك المجتمع وأن الفرد عندما يخلو إلى نفسه لا يلبث

أن يحقق لها الأمانى، ويشبعها من المحظورات، ما دام عنقه بعيدا عن سيف القانون.

لسنا نعرف للطبيعة فكرة ولا للصدفة نظاما. إن المعانى السامية لا يمكن أن تصدر إلا من أعماق روح كبير، عن قوة محجوبة وخافية يمنع من ظهورها شدة الظهور وضعف الإنسان ومحدوديته. قوة أخذت كل شىء بما ينبغى له من الحكمة والقصد والتدبير. لا تعرف اللهو والعبث وإنما تعطى كل شىء خلقه ثم تهدى إلى الانتفاع بذلك الخلق والاستعداد. وتتراءى أمام العقول القوية والملكات الواعية فتترجمها أقوالا وتسابيح. وأمام العائشين فى جلودهم والملاحدة فيترجمونها فوائد ومنافع لأنفسهم حتى يقول فلتير: إننى مضطر إلى الاعتراف بالدين حتى تكون زوجتى أكثر إخلاصا وخادمى أقل لصوصية.

قامت صلوات الفكر على أرض آثينا قبل أن تصل إليها دعوة النبوات. وانقدحت شرارة الإيمان فى قلب سقراط وأفلاطون ومن قبلهما انكسيمانس ومن بعدهما استولت على المشائين وفلاسفة الرواق. وتهدت فكرة الإله إلى أولئك جميعا. لأن أعلام الألوهية وآياتها تخفق على كل أرض وفى أعماق كل فضاء وسماء. وتألم أفلاطون عندما ألجأه الملاحدة إلى إثبات الله فاستكثر أن يشير إلى شىء واضح كل الوضوح.

والتقت حكمة الفلاسفة وإلهاماتهم بهدى السماء فى صعيد واحد، وشهدت مدرسة الاسكندرية ألوانا من التسابيح فى ظل فلسفة آثينا ويهودية الشرق ثم مسيحيته. وقامت نفس الصلوات فى نيسابور. ثم التقت فلسفة القدماء وما صح من دياناتهم على أرض الأمجاد من فلاسفة العرب وحكماء الإسلام فهتفت أعماق الأزل بتحية لهذا اللقاء الضخم الذى صاغ أجمل حضارة تحف بها المادة والروح. حضارة خفقت أعلامها فى دمشق وبغداد وولت وجهها شطر الأماكن المقدسة من أرض الحجاز.

وامتزجت فلسفة العقل بحكمة القلب فى منهج الدين الأخير فكتب له وثيقة التطور والخلود .

وتلقف الغرب حضارة الشرق فى أسبانيا ، واختطف البقية الباقية يوم زحفت جحافله المتبربرة على بلاد الشرق باسم الدين وباسم الصليب . وراح الزمان يمشى إلى غايته ، نهار وليل ، نحوس وسعود ، حتى أفلت حضارة الروح وبقى منها جانب المادة وحده فتعثر حافيا على أرض الجليد والصقيع . ومالت موازين الأخلاق تحت ضربات المادة الجافية ، فرجحت كفة الشر وشالت كفة الخير ، وانقلب مجتمع الحضارة المعاصرة فأصبح وحوشا بغير قيود وأناسا بغير ضمير .

والقافلة البشرية تسير اليوم على أرض من الشوك والقلق ، وتمشى نحو غاية مجهولة لا يؤنسها ضمير مشرق ولا يصاحبها ضياء من السماء . فتتعثر ، وتبحث عن حل فإذا هو عثرة أخرى . فإذا هتف هاتف بالعود إلى رحاب النبوة المشرقة سخر منه أجلاف الحضارة الصناعية وصاح فى وجهه جماعة المفاليت والمفتونين . وتضيع النداءات الطيبة وسط زمجرة الأغوال .

نسيت فضائل الشرق ونبواته ونسيت أمجاده وحضاراته . حتى ابناؤه أداروا ظهورهم له وانطلقوا خلف أبواق الغرب وناعقيه يشاركونهم جفاف المادة وقلق العيش ويرقصون معهم رقص الفراش على النار .

لست واقفا على منبر من منابر الوعظ ، ولكنى أستعرض مسرعا صفحة الماضى ومأساة الحاضر البغيض .

دعوات تقوم فى كل مكان تنادى بالتدمير والفناء . ديانات قد اصطنعها قوم باسم الوجودية وباسم البروجماتزمية . تدعو إلى انطلاق الوحش الكامن فى إهاب الإنسان : افعل ما شئت ولا تبال أية نتيجة حققت ، وقام على هذه الدعوات الجديدة مجتمع من الأشقياء . دعوة إلى العربدة ودعوة إلى الانتحار

للتخلص من هذه الحياة أو هذه المزبلة كما يسميها سارتر ، فلا تلق واحداً ممن يدينون بهذه الشريعة الجديدة إلا أحسست بالزفرات المتأججة وهي تنطلق من جوفه الخرب وصدره القلق : حياة بلا أهداف ، وبلا مثل ، إذا صح أن نسميها حياة .

بينما يخطو المؤمنون فى طريقهم خطوة الواثق يحدوهم أمل وتشرق على أفئدتهم نعمة الهدوء وراحة الإيمان .

ألست بمصدقى ؟

كيف نعيش عالمنا اليوم ؟ الكل يشكو دهره ، إلا المؤمنين ، حتى فى مقاصير الترف ومسارح المجون . نفوس تعربد بين الأضواء والألوان ولكنها رقصة المذبوح وهزة القلق ، يتوهون بها بين ضجات مصطنعة ، وعندما يفيقون لا يجدون أمامهم سوى اللوحة القاتمة والوجه الحزين .

هذه العروس العالمية التى عرفتها الدنيا باسم « مارلين مونرو » ماذا كان ينقصها من متاع الدنيا وبجدها البراق ؟ ولكنها انتحرت فى ظروف مبهمة .

ذلك الفتى الذى تحدثوا عنه يوما فى أمريكا وقد تخلص من حياته وترك خطابا لأبيه المليونير يخبره أنه قضى لبانته من هذه الحياة وأنه مل البقاء فى هذا العالم لأنه لا يجد جديدا يسعده ولا يجد جانبا مشرقا يأوى إليه .

وطبيب الإسكندرية الذى أزهق روحه بين الخمر والنساء تاركا وراءه المال والجمال والعلم والشباب . وغير هؤلاء كثيرون من شباب توارى تحت وطأة القلق واليأس القاتل من جدوى الحياة . لقد تخلصوا من (المزبلة) كما يسمونها لأن الوجودية تقضى بذلك فى كتابها المقدس ، تقول لهم أن الحياة ليست بذات معنى فعشها معربدا غافلا عنها ، فإذا لم تستطع فالموت راحة كل حى .

إن ثورة المؤمن سببها الظلم والحرمان من حق الحياة . أما ثورة الملحد فسببها القلق والجفاف الروحي واليأس من جدوى الحياة .

على أن الدين لا يسترحم هذه الشرذمة الضالة من مهاجميه . وليس يفرح بمقالة رجل مثل أوغسطين : أومن بهذا لأنه محال . فآخر ومضات النبوة المشرقة وهو الإسلام لا يعرف الكهانة المفروضة ولا يعرف السدانة المبهمة . إنه دعوة قوية تشد أبصارنا إلى الكون المحيط بنا وتدعونا إلى قراءة ما كتبته عليه يد الإله ، وتنادى العقل فى كل موطن وتشيد بالفكر الإنسانى فتجعله عبادة وصلاة إلى جانب صلوات القلب والجوارح الأخرى (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا) . وكتاب الإسلام الأكبر يبدأ أول ما يبدأ بكلمة اقرأ وبقوله : علم الإنسان ما لم يعلم . وفى الملحمة الإلهية التى جاءت إلى الوجود بأول إنسان ارتفع هذا الإنسان إلى قمة الوجود بعلمه لأنه تعلم الأسماء كلها . فتصور مسمياتها وفهم العالم الذى تقلد خلافته عن جدارة فكانت خير تحية له سجود الملائكة بين يديه .

كذلك سوى بين الناس فى حق الحياة ، لكنه رفع العلماء إلى مكانة كريمة فقال (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم . . . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) .

وليس للعلم حدود فى نظر الإسلام : « وقل رب زدنى علما .. طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .. اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » بل فضله على العبادة « قليل العلم خير من كثير العبادة ... الناس عالم أو متعلم .... الخ » وأوعد من يعطلون حواسهم وعقولهم ونزل بهم إلى الحضيض : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون

بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) .

ويطول بنا المقام إذا استقصينا إشادة الإسلام بالعلم والعلماء وإكباره للفكر والمفكرين .

وقد يرتفع صوت فيقول : إن المقصود بكل هذا هو علم الدين فقط . وليست الثقافة الكونية ولا العلم فى مدلوله الواسع . ونقول لهؤلاء إن القرآن يعنى العلم بمدلوله الواسع . فهو يشيد بالحكمة وهى كلمة جامعة . وعنده قضاء سليمان وداود علم (ففهمناها سليمان وكلا آتيناه حكما وعلما) وتأويل الأحلام وإدارة الزراعة ، والاقتصاد المصرى علم أوتيه يوسف بن يعقوب (ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) وكل نداءات القرآن تهيب بالتفكير فى خلق السماوات والأرض والجبال والسحب والأمطار والنبات وعجائبه كذلك الحيوان كالإبل وسائر الأنعام والدواب ثم تصريف الرياح وخصائص اللواقح منها . كذلك البحار والأنهار واختلاف المياه بين عذب وملح أجاج . والفلك المواخر والنباتات المختلفة الأكل وهى فى تربة واحدة وتسقى بماء واحد . وغير ذلك من إشارات إلى الطب والتاريخ وسنن الحياة .... الخ وكل هذا يسوقه فى لهجة توجيهية تحث على التفكير وتأخذ بمجامع القلوب فتطوح بسامعيها إلى مواطن الدرس والتأمل وبحث العلل والمعلولات فتحشد أمام العقل البشرى مجالات واسعة هى كل علوم الكون والحياة .

لا .. ومهلا ، فإذا وقف العلم الطبيعى عند حدود التجربة ووقفت أبحاثه دون ما وراءها . فإن العلم كما يعرفه الإسلام لا يقف عند ذلك ، وإنما يندفع إلى القمم العوالى من المعرفة . فنراه يأخذ بنظر الإنسان إلى تطلعات أبعد مما يرى فيقسم له بما يبصر وما لا يبصر . وبمواقع النجوم . وهو لا يقسم لذات القسم وإنما هى إشارات خفية تأخذ بمجامع الوجدان وتدفع بالعقل

الإنسانى إلى فضول رائد وتطلع وثاب يقفز به إلى مطالع العلم بكل فروعه وألوانه، فيطلب الخفى كما يطلب الظاهر، ويطلب ما فى السماء فضلا عما فى الأرض. وعندما يندفع الإنسان خلف هذه الإشارات ويستجيب لها ، وعندما يصل إلى أعماق قريبة أو بعيدة من هذا الكون ، وعندما يعرف شيئاً عن أبعاد النجوم ومواقعها وسرعة اندفاعها فى الفضاء لا بد أن يصيبه دوار وذهول . وتتجلى أمامه روعة القسم ومقصده عندما يقول (فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

وفى ظل هذا الدين الذى أكبر العقل الإنسانى وأشاد بالعلم وقيمة العلماء قامت سيدة الحضارات تحت سماء الشرق وصاغت لأوربا المعاصرة كل دعائم نهضتها وأصول مخترعاتها فتغنى المنصفون باسماء ابن رشد وابن سينا وابن الهيثم والبيرونى والرازى والخوارزمى وجابر بن حيان، وجحد التعساء منهم فضل أولئك الأمجاد واختاروا لأنفسهم حضارة بلا روح ، حضارة شادوها على صخر أصم لينكروا أصلها فحقت عليهم اللعنة وباتوا تحت وطأتها يرزحون ويطلبون السعادة فى ظلها فلا يجدون . ذلك لأنهم تركوا فى الشرق جانبها الآخر . ذلك الجانب الروحى الذى أورقت أغصانه تحت شمس الإسلام فكان أن قامت بينهم حضارة جافية معربدة بدت لهم وكأنها قطة شرسة تتغذى على أولادها .

الدين — إذن — أبو العلم ، وصائغ الحضارة الرفيعة ومنهل الأدب المصفى ، وهو الآخذ بيد المجتمع الإنسانى إلى معارج الإنسانية وإلى مطالع النور والخير والجمال .

الدين إحساس بالكون ، والفلسفة معرفة به ، فإذا أراد القوم دينا يخضع للمعامل والمخابر والمصانع فليثبتوا لنا خضوع الحياة وسرها لتلك الأدوات . ليثبتوا لنا حقيقة الخيط الذى يربط بين النائم والمنوم فى التنويم المغناطيسى ، وماذا يربط بين قلب الأم وولدها ، وماهى العلاقة بين أن أذكر شخصاً فأراه

مقبلا على الفور . ما هى حقيقة التلبائية — أى الشعور على البعد — حتى أصبحت شغل الباحثين بأمريكا وأوربا ، ماسر تلك النداءات والأفكار التى تنتقل عبر البحار الواسعة والآماد الطويلة من عقل إنسان إلى إنسان دون هاتف أو آلة استقبال أو آلة إرسال ، ماسر المغناطيسية ، وما سر الكهرباء ، على أى جناح ترسل الشمس أشعتها إلينا وعلى أى شيء تبعث حرارتها وليس بيننا هواء ولا شيء مادى يملأ الفراغ ، إن كلمة الأثير لاتكفى ما دامت فرضا من الفروض غير ثابت علمياً ، فإذا أصررتم على صحة الفروض لأنها ضرورية فقد وقعتم فى الحافرة ووجب عليكم أن تتخلوا عن واقع العلم الطبيعى وأن تسلموا بحقيقة الوعى الكونى فى الإنسان وبارتفاع نسبة هذا الوعى فى كيان الأنبياء والمرسلين ، ذلك الوعى الذى ينتشر ضعيفاً أو قويا فى أحاسيس الناس ويندفع فياضا جارفا يضرب فى رحاب الكون الهائل بكل موجوداته حتى يلتقى بحقيقة الأزل وسريرة الأبد .

ما هى القوة ، ما هى الطاقة ؟ ليس يكفى أن يسمع الإنسان اسما فيؤمن بمسماه ما دام ديدنه التطلع والبحث عن حقائق الأشياء .

هذه الذرة ، هذا الجوهر الفرد ، إنه أخف ما عرفناه وزنا وأبسط تركيبا فإذا شطرناه فوزن هائل يضرب فى كل اتجاه وقوة مدمرة تأتى على كل شيء ، ثم ينتهى إلى لاشيء غير بضعة معادلات تدخل بنا فى عالم المعانى المجردة فى العالم الثانى ، عالم الإيمان .

ليس شعرا هذا الذى يقال ، ولكنه حديث العلماء ، وهو أيضاً مرحلة تطورية معقولة تصور لنا شيئاً من سنن هذا الوجود وتشرح لنا جانبا من تسلسل كائناته وموجوداته ، ففى الأعماق البعيدة من عالم النبات تتكون الطفيليات وخضراء الدمن والنوامى الدقيقة التى تتسلسل وتترقى فى تراكيبها ووظائفها حتى تنتهى إلى النخل والكرم ، فإذا انتهت عند ذلك أسلمت دورها إلى الإسفنج والمرجان كأول ضرب من ضروب الحيوان ، ثم يتسلسل هذا

الجنس أيضا فينتهى إلى الإنسان ، إلى المشاعر التى تحس والعقل الذى يدرك والوعى الذى ينمو والقلب الذى يستشف والروح الذى يسلم إلى بداية جديدة لحلقة جديدة فى سلسلة الموجودات التى لا تنتهى وإنما تختفى خلف أسوار المجهول فى العالم الثانى عالم ماوراء المنظور .

لقد قيل إن الموت ولادة ثانية ، وقيل أيضا إننا فى حياتنا الدنيا على أبواب عالم لا نراه كما كنا ونحن فى الأرحام لا نرى الدنيا ، وقيل أيضاً أن مرحلتنا هذه كالجنين فى قلب البيضة يتكون فيها ليخرج منها إلى رحاب أوسع ، وقيل أيضاً الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

وليس يرضى العلم ولا يسمح المنطق بأن كونا وراء أبعاد الخيال زمانا ومكانا يمكن أن يوجد من أجل بضعة ملايين من البشر يعيشون على سطح هذا الكوكب وأن يكون هذا الإنسان وتلك الحياة التى يحياها هو النهاية الخاتمة لسلسلة تطور بدأ منذ آماد بعيدة ضاربة فى عمر الأزل ثم يبتلعه الفناء هكذا ، بكل بساطة وينتهى كل شىء .

إن سرا خبيئا وراء هذا كله يقف العلم الطبيعى مكتوفا أمامه لأنه لايستطيع أن يذهب إلى أبعد من دنيا المادة وعالم التجربة .

ولكن الإنسان لن يهدأ وسيظل دائبا يريد ليفجر أمامه ، سيسأل عن سر الحياة والموت وسيدق أبوابهما ما عاش على هذه الأرض ولن يجد غير الباب الذى فتحه له الدين منذ أحقاب وأحقاب ، سيجد أنه لم يخلق عبثاً وأنه سائر فى طريقه إلى مصير بعيد ، مصير آخر غير الفناء المطلق ، وأن الموت ليس إلا خلعاً لهذا الثوب المستعار الذى يسمونه الجسد ، ليستأنف نفس المسيرة على درب مجهول لديه حتى اليوم ، وليشهد موقفا آخر تصحح فى ظله الأخطاء وتسوى القضايا والمظالم التى عاشها زمنا طويلا فى ظل هذه الحياة .

ولعل هذا الانتقال على نفس المسيرة وإلى حياة تطابق حياتنا الحاضرة فى

خطوطها الرئيسية ، مع التعاقب لها والتعالى عنها ، هو ما يعنيه القرآن عندما يقسم بالشفق والليل والقمر على قوله : (لتركبن طبقا عن طبق) .

ونحن نعرف أن هناك حركة واسعة لدراسة الظواهر الروحية ، وقد أخذت أعطافها تتسع حتى أصبحت شغل أدمغة قوية من رجال الطبيعة والكيمياء والتشريح وأن هذه الدراسة التى احتلت مكانها اليوم فى جامعات أوربا وأمريكا لم تقم على وهم أو خيال كما يزعم البعض ، لأن الذين يمارسونها رواد فى المجالات العلمية المختلفة وأساتذة كبار قضوا جل أعمارهم بين خشونة المادة وواقعها . وكانوا يضحكون بالأمس مما يعيشون فى غمراته اليوم .

ومقرارت هذه التجارب والدراسات تنطق بعالم تقوم قيامته وراء عالمنا بل فى قلب عالمنا ، مع اختلاف فى الاهتزازات الأثيرية يجعلنا نعيش معا بغير صدام كما يعيش الصوت المذاع معنا فى حجرة واحدة دون أن يختلط بأصواتنا أو نحس به إلا إذا فتحنا المذياع أو آلة الاستقبال .

روح لابد أن نسلم بوجوده خلف أسوار العالم الذى نراه ، وروح لابد أن نسلم بوجوده فى كياننا يلعب دوره الخطير ويدير هذا الجهاز البارع الذى يسمى الإنسان .

أما الأول وهو الروح الأكبر فهو علة الوجود ومحركه ، وهو الذى تشير إليه آياته فى كل شىء ، آياته التى تفتحت عليها عين الإنسان منذ كانت له عين ترى ، فتهدى إلى الدين نبعاً من فؤاده وهديا من باطنه . فصاغ هذا الشعور صلاة ، وصاغ المعانى التى أحسها إلهًا تلمسه فى مظاهر الطبيعة حينا ثم ارتقت به ملكة التجريد فتصوره معنى يملأ المجهول والمعلوم ويرسل فى هيكل هذا الوجود الضخم سر قوامه ووجوده .

وبعد ذلك كان لابد للإنسان وهو يحمل على كاهله عبء العناصر التى تكون من أمشاجها جسده . وعبء البيئة التى ترعرع فى محيطها ، والظروف

التى عاش بين تقلباتها . كان لابد لهذا المخلوق أن ينحرف . لأنه عبد هذه العوامل ومتأثر بها جميعا . وكل ما يقدم عليه فى بناء مجتمعه وتنظيمه لابد أن يتأثر بهذا الخليط المتلون فلا يستقيم له نهج ولا يصفو له شراب .

وإزاء هذا رأت السماء أن تمد يدها إليه فى عهد طفولته الاجتماعية لتأخذه إلى صحيح الجادة وسوائها . فكانت الشرائع والأديان .

هذا عن الروح الأكبر . روح الكون وخالقه ومحركه وهاديه . وما كان الإنسان ليهتدى إليه إلا بآثاره وآياته . كما نستدل فى عصرنا على وجـــود الكهرباء والمغناطيسية بآثارها دون أن نعرف شيئا عنها وكما نستدل على صفات البذرة والناسلة بما ينتج عنهما ، وعلى مجاميع الكواكب البعيدة والإشعاعات الهائمة فى الفضاء بما تتركه على الألواح ذات الحساسية وكما نعرف المفكر بفكرته والشاعر بقصيدته .

ولهذا الروح الأكبر أرسلت نجواها مشاعر وعقول عاشت على الأرض منذ احقاب ، وانطلقت كلمة التأليه والتوحيد على لسان انكساجوراس القديم وسقراط وافلاطون وأرسطو . وعلى لسان زارع النواة إذا زرعها فطلعت وأينعت . وحادى الصحراء عنـــدما يرى أثر القوافل باديا على بساط الديموم .

حتى على ألسنة العصاة ومن لا يفيقون من الخمر كأبى نواس .

فواعجبـــا كيف يعصى الإلـــه وكيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آيـــة تدل على أنه الواحـــد

أما عن الروح الثانى وهو سر حياتنا . فمهما تصوره المتصورون ومهما تلاقت حوله كلمات الفلاسفة أو تباعدت . فإن أمامنا لغزا شديد الغموض ووجوداً لابد موجود .

لن نفيض فى مقالات الباحثين عن روح الإنسان . ولن نذهب فى رحلة مع محضرى الأرواح . بل ولن نستعرض لتلك المظاهر التى تغدوا أمامنا وتروح كل ليلة وكل يوم من أحلام نراها فتتحقق ومن أوهام نتوهمها فنفرح لها أو نحزن فإذا هى أمامنا نراها ونسمعها . ومن سبحات للفلاسفة والهامات للباحثين والعلماء تصبح فى غدها شيئا يعيش مع الناس . كذلك مظاهر التنويم المغناطيسى التى لا تتحقق إلا فى الإنسان دون الحيوان .

كذلك الشعور على البعد أو حديث قلب الأم وغير ذلك من الأسرار العميقة التى تحيط بنا والتى تشير إلى وجود الروح .

لن نفيض فى ذلك لأنها أحداث نشاهدها جميعا ونسمع عنها ونستطيع أن نرجع إلى تجاربنا الشخصية وإلى أحاديث قلوبنا واعتقاداتنا فى تلك الأشياء .

ولكننا سنقف أمام نظرتين تتسمان بالعلم والمعرفة وتستندان إلى قوانين العلم كما نعرفها وكما ينادى بها فهمنا الحديث :

للإنسان روح تغاير المادة كل المغايرة . دليلها بقاء شخصية الإنسان فى كل أدوار حياته دون أن تتغير وذلك رغم ما يقوله البيولوجيون من أننا نتغير كل بضع سنوات فتتآكل خلايانا وتتلف وتتكون أخرى مكانها . وذلك يصفع الرأى الذى يقول أن تجاربنا وذكرياتنا ما هى إلا انطباعات على صحيفة مادية تعيش فى أعماقنا . إذ كيف تذوب هذه الصحيفة وتتغير مع الأيام وما هو مطبوع عليها باق لا يزول .

تلك التجارب والذكريات . أين مكانها منا . القلب ؟ .. العقل ؟ وأى مكان فى القلب أو العقل يمينا أو يساراً . أعلاه . أم أسفله ... ؟

أسئلة لابد منها . لأننا نتحدث عن المادة التى يزعمونها . وهى ذات فراغ ولها حجم واتساع وأركان . فإذا امتلأ وعاء ذكرياتنا أو كتبت أحداثها

فلابد أن تأخذ كل ذكرى مكانها لأن ذلك طبيعة المادة وخصائصها كما نعرفها بينما نحن نتصور ذكرياتنا ولكننا لا نعرف مكانها منا ولا فى أى موقع هى كامنة بالنسبة لبقية التجارب والذكريات .

إذن فمكانها غير طبيعى . إن الذى يحتفظ بها شىء آخر لا ندرى من أمره شيئا إلا أنه يخالف المادة فى طبيعتها وفى خصائصها . إنه الروح .

ثم ماذا . . . ؟ .

ثم وقفة تأمل تتسم بالعمق والمعرفة يقفها فيلسوف وعالم مسلم هو أبو على ابن يعقوب الشهير بابن مسكويه . الذى عاش بين القرن الرابع والخامس الهجرى .

يقول الرجل :

وجدنا فى الإنسان شيئاً يضاد أفعال الأجسام وأجزائها بحده وخواصه وأفعاله ، كذلك لايستحيل ولا يتغير ، كما أنه يدرك جميع الأشياء بالسوية .

وكل جسم له صورة لا يقبل غيرها إلا بعد مفارقتها كالمثلث لا يقبل التربيع ولا التدوير .

وكذلك إذا قبل الجسم صورة نقش أوكتابة مثلا فإنه لا يقبل صورا غيرها إلا بعد زوال الأولى ، ثم إننا نجد أنفسنا نقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات دون مفارقة للأولى بل ودون ضعف أو قصور وهذه كلها خواص مضادة للأجسام .

بل أننا نحس فى أنفسنا بمبادىء لاتؤخذ من الحواس ، منها قوة القياس ، والنفس تحكم على الحس بأنه صدق أو كذب دون أن تأخذ هذا الحكم منه ، لأنه لا يضاد نفسه ، فالبصر مثلا يخطىء فيما يراه من قرب ومن بعد ، كذلك يخطىء فى شىء دائر فيراه كالحلقة أو الطوق وهو ليس كذلك ، كما

يرى الأشياء فى الماء مكسورة أو معوجة وليست كذلك ، وكل ذلك تصححه أحكام النفس لاعن طريق الحواس .

وهكذا يرى ابن مسكويه مغايرة النفس للطبيعة أو المادة المجسمة فى كل خواصها وأفعالها ويحشد لذلك أمثلة من واقع الحياة .

ويقول أيضاأننا ندرك العروض والأطوال والأعماق والروائح والألوان دون أجسام، بل ونقبل الكيفيات المتضادة للأجسام على السواء ، وليس هذا شأن الأدراك الذى يصدر عن أجزاء مادية فينا . . . الخ .

وخلاصة ما ينتهى إليه بن مسكويه وغيره من مغايرة حقيقة النفس لحقيقة الجسد هو أن الروح لغز يدرك وجوده ولا يمكن تفسيره إلا بأنه قوة خفية صادرة عن روح الإله ، سواء هبطت إلينا من المحل الأرفع أو تخلقت فى أجسادنا بطريقة أو بأخرى وانبعثت فى كياننا على شكل مغاير لايقبل طوارىء المادة ولا يجوز عليه الفناء .

هذا تراث الدين ، وتلك فلسفته ومراميه .

فماذا عن القطيع الحائر فى ظلام المادة وصحرائها الجرداء ؟

لا شيء غير العواء .

* * *

أصحاب نظرية التطور

وهؤلاء جماعة آخرون أقلقوا المجتمع الديني ردحا من الزمن وصفق لهم مصفقون فى الغرب وفى الشرق على السواء .

نادوا بفكرة تعرف بنظرية التطور ، أو مذهب النشوء والارتقاء .

والواقع أنها نسبت إلى أحد علماء الأحياء الأنجليز دون أن يكون صاحبها ومبدعها الأول ، فلم يكن (تشارلس دارون) غير باحث سار على درب قديم سبقه عليه فلاسفة ومفكرون لم يكتب لهم ما كتب لهذا العالم الأنجليزى من توفيق فى حشد الشواهد والمعلومات ، ومن شهرة واسعة ساقتها الظروف إليه .

كتب عنها الفرنسى جان لامارك ولكنه لم يستطع إقناع معاصريه كما فعل بعد ذلك دارون وأتباعه ، ونهض بعد ذلك جماعة منهم توماس هكسلى والفرد والاس وإرنست هيكل وغيرهم فأذاعوا النظرية مع شىء من التحوير فملأوا الدنيا وشغلوا أدمغة الناس طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ليست أخطر العلوم الطبيعية والحيوية شأنا فى ذاتها ولكنها — ولأمرما — أحدثت انفجارا هائلا بعدت آثاره وأصداؤه حتى شملت رجال الدين والعلم معا . وكان لها أعداء من هؤلاء وهؤلاء وإن كان لكل من الفريقين مذهب وباعث دفعه إلى معارضتها .

قامت النظرية على عدد ضخم من الفروض والتخمينات لم يتقبلها الماديون الذين يرفضون كل ما هو غير محسوس حتى لوكان ذلك لمجرد الترابط بين المحسوسات أو مسايرة المنطق الذى تدعو إليه الظواهر والمشاهدات .

ورفضها رجال الدين ، بل قامت قيامتهم كأشد ما تكون ثورانا وهولا

وكيف لا يكون ذلك وهاهو الإنسان سيد الكائنات ومعدن النبوة منها قد أصبح مجرد حيوان متطور من دودة حقيرة موطنها ظلام الأرض والبحر. ولم يعد يستطيع أن ينكر الوشيجة والقربى لأى خنزير وأى تيس وأى حمار !

والحق أن رجال الدين قد أتعبوا أنفسهم كثيرا وأتعبوا الأديان معهم ، فكلما قامت نظرية أو أعلن كشف جديد هاجوا وأمسكوا كتبهم بأيديهم وراحوا يقيسون مختلف التأويلات والتفسيرات عسى أن يجدوا بينها بارقة يلتقون بها مع النظرية الجديدة أو الكشف الجديد ، فإذا لم يجدوا فالقيامة قائمة والحرب ضروس لا تضع سلاحا ولا يهدأ لها أوار .

أوقفوا أنفسهم دائماً موقف الدفاع وظهر العلم فى موقع المهاجم ، وكثيرا ما تنجلى المعركة عن هزيمة العلم دون انتصار رجال الدين ، وإنما يكون النصر لنظرية جديدة يخرج بها عالم آخر أو يتراجع بها نفس العالم فيلتوى نهر المعرفة على نفسه ثم يأخذ طريقه ويمضى ، وتمضى معه عربة الذكريات .

وفى عربة الذكريات نفتش اليوم عن هذه النظرية — نظرية التطور — فلا نجد غير هيكل متهافت ذهبت عنه كل معالمه تقريبا ، وباتت النظرية وكأنها أخرجت لرجال السياسة وعلماء الاجتماع لينتفعوا بها أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء .

أنهكتها كثرة الفروض والحلقات المفقودة . وأنهكتها حملات العلماء ممن يشتغلون بالوراثة وبالجيولوجيا ووظائف الأعضاء وعلم الحياة .

لكنها تركت منذ عهدها الأول أثر الصراع من أجل البقاء فى أوساط السياسة والحرب ، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره فى الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها ، وظهرت من خلال ذلك نظرية القوة والتمييز العنصرى ،

والشعوب المختارة ، كما صيغت نظرية القوة عند نيتشه ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان .

ومنها وجدت الاشتراكية والتقدمية سلاحها فأعلنت حربها على الرجعية والمحافظة فى حين وجـــدت الأرستقراطية أيضا سلاحها فأعلنوا أنفسهم الممتازين والمختارين الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكى العروض وصانعى التاريخ .

وفى ظلها تقدمت علوم الأجنة والحفريات وعلم النفس والطبائع والأجناس وظهرت عمليات التهجين وتحسين الأنواع وملاءمة الظروف والبيئات وغير ذلك من مواليد هذه الفكرة وتطبيقاتها .

وهكذا جاءت نظرية التطور فأحدثت ضجتها ، ثم أنجلت تاركة وراءها ميراثا من الخير والشر ، وخلفت أيضاً ميراثا من الإلحاد والإيمان .

لقد عرضت على الناس صفحات من كتاب الكون ، صفحات لم تكن قد قرئت من قبل فى لغاتها وإن كانت قد قرئت بلغات أخرى منذ عهد بعيد ، ففى أقوال أرسطو عرف التطور وعند البيرونى وإخوان الصفا وابن مسكويه وابن خلدون ، ولكن بلغة أخرى وفهم آخر وإن اقترب كثيرا من الفهم الجديد .

عرفوا خضراء الدمن كأول أطوار النبات ، وعرفوا الكرم والنخل كنهاية راقية له ، كما عرفوا الأسفنج والمرجان كحلقة اتصال بين الحيوان والنبات وتحدثوا عن القرد كهمزة وصل بين الحيوان والإنسان .

ولكن لم يكن هناك ما يسعف القدماء بالوسائل التى توفرت للمحدثين فبقيت قراءاتهم ومضات فكر ووثبات خيال ، بعضها يشير إلى عظمة الخلق وجمال القدرة وبعضها — كأبحاث ابن خلدون — يشير إلى سلسلة الترابط والترقى

حتى يصل بها إلى الإنسان الذى يتسامى بدوره إلى مرتبة تصله بالعالم العلوى حيث يتلقى الوحى والفيوضات ويحمل الرسالات السماوية فيعلنها على الناس .

إذن ، فهى نظرية جديدة قديمة ضارة ومفيدة ، ومن أجل ذلك كانت أهميتها وكانت آثارها وشهرتها .

ولكن ما قيمتها فى عالمى الإلحاد والإيمان ؟

تلقفها معلنوا الحرب على الأديان فأفاضوا فى الأسرار الخطيرة والمهولة التى تنطوى عليها ، وصاغوا القصيد الطويل فى الانتصار الهائل الذى أحرزه العلم والهزيمة المنكرة التى أصابت الأديان فى قولتها بالخلق المستقل وقولتها بخلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وبأن الإنسان وحـــده صاحب القداسة والاتصال بالملأ الأعلى وأن الكون قد خلق من أجله ولخدمته . . . إلى آخر هذا كله .

والواقع أن انتصار العلم وهزيمة الدين أغنية قديمة لا يمل أولئك الناس من تردادها ولا يريدون أن يعترفوا بأن مشارب العلم دائمة التغير وأن هذا أمر قديم قد تكررت فيه المثلات وأصبح من الضروريات .

رددوا هذا الانتصار اللفظى عندما أعلن نيوتن جاذبيته ، وعندما أعلن كبلر نظامه الكونى . وعندما سادت نظرية الجوهر الفرد والخلق الذاتى ، وألحوا فى تردادها عندما صيغت نظرية التطور ويوم أعلنت نسبية أينشتين ونظرية الكتلة والقوة و . . . الخ . . . . الخ .

ونسوا أنهم أعلنوا فى كل مرة أن مغاليق الكون قد فتحت لهم ، وأن سر الطبيعة بات فى جيوب العلماء ، وأن الكون قد أمكن تفسيره ميكانيكيا وآليا ، وأن فكرة الله والخالق قد أصبحت بالية وعلى أصحابها أن يحملوها على أكتافهم ويذهبوا إلى غير رجعة .

ولكن مغاليق الكون لاتفتح . وأصحاب هذه الأكذوبة لا يزالون فى أماكنهم يخبطون خبط عشواء ويضربون فى كل اتجاه فلا يجدون إلا مجاهل ومتاهات تسلمهم إلى أخرى وبصورة لا تنتهى أبدا .

حتى الجوهر الفرد الذى ظنوه نهاية المطاف فى بناء الكون وجعلوه اللبنة الأولى فى صرح الكيمياء . ها هو قد أخرج لسانه لهم ساخرا وأسلم ساقيه للريح ، وانقلب إلى صورة عجيبة تلجم الملاحدة وتدعو إلى رحية الإيمان .

نواة يتحسسون وجودها وهالة تدور حولها فى سرعة الوهم ، ونظام آخر ينافس المجموعة الشمسية فى دقة وغموض . هول من الإشعاعات والقوى لا يجدون لتفسيرها سبيلا غير الإهابة بالأرقام والعمليات الرياضية المعقدة والتخمينات الضاربة فى كل اتجاه .

حتى نظرية الخلق الذاتى ، تلك التى لعبت دورا كبيرا فى مخيلة القوم لم تثبت طويلا أمام التجارب حتى أعلن موتها ونسج أكفانها عالم فرنسى يدعى باستور .

وحتى فى ظلال تلك النظريات لم يكن هناك ما يؤيد الماديين فى دعواهم. إن الأديان نفسها تعلن خلق آدم من طين ، بل تعلن أن هناك سلالة لعبت دورها فى خلق الإنسان . أما الكيفية فمجهولة لنا تذهب الأقوال فى تصويرها وتجىء إنها مادة جامدة ونفخة من روح الإله . فليقل دارون وأتباعه ما يقولون وليقل أصحاب الخلق الذاتى ما يحلو لهم . فإن أقوالهم لا تخلو من فائدة ، فلتكن قصة تروى ويتلهى بها الناس ما دامت لا تصلح علما ، وما داموا عاجزين عن تفسير الحياة وشرح ماهيتها ، وما داموا لا يستطيعون — ولن يستطيعوا — أن يبينوا لنا كيف أن فاقد الشىء يعطيه ، وأن الحياة والحركة والعقل يمكن أن يخرجوا — من غير تدخل خارجى — من المادة الجامدة والأرض الموات .

الماديون لا يريدون أن يرجعوا عن منطقهم الذى لا منطق فيه .

فلنتركهم هنا لنعيش فى جولة قصيرة مع سدنة الدين ورجاله فى أوربا لنرى ماذا فعلوا وماذا فعلت بهم نظرية التطور .

لقد نهضوا لها طبعا ، كما نهضوا لكل نظرية علمية بحق وبغير حق ، وهذا لأن بعضهم لا يعرف الفرق بين طبيعة العلم وطبيعة الدين .

يا للفضيحة ويا للعار ! !

أهكذا يصبح موضعنا بين الخليقة على يد دارون وأتباعه ؟

أيصبح آباؤنا وأجدادنا . وهم آباء الرسل والأنبياء ليسوا غير أسماك وزواحف وسحالى وبرمائيات وطيور وحشرات وخفافيش ... إلخ إلخ ؟ ؟

تلك فضيحة لن نسكت عنها أبداً ، لا بد من موقعة نسترد على أرضها شرف الإنسان. ولا بد من حرب ودم يراق .

إن الأحقاب الطويلة والعصور الجيولوجية ليست غير كذب وهراء ، إنها ستة أيام فحسب ، وتلك الأرض ليست بدائرة والشمس وحدها هى التى تجرى والإنسان هو الإنسان منذ خلق الله السموات والأرض ، وهو سيد الخلق جميعا ، صاحب الكلمة العليا والأمر المطاع .

ولقد وقف قوم عند ذلك وحاربوا دونه ، وأداروا ظهورهم لكل كلمة يقولها العلم واستسلمت فئة أخرى تحت هول الصدام . مقتنعة بأن الحقيقة ضائعة ولن يسفر وجهها قبل زمن طويل .

ولكن فئة ثالثة لم تسكت بل شمرت عن سواعدها وأمسكت بالكتاب المقدس وأخذت تقرأ :

« فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية .

وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله ترف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان، وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا ، فعمل الله النورين العظيمين ، والنجوم . وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية كجنسها بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان ذلك » .

وبعد قراءات طويلة بدأوا يعلقون : أليس هذا حديثاً عن فوضى الأرض يوم الخلق وماكان فى السماء من سحب لأن الأرض حارة لا يستقر عليها الماء ثم بردت ودارت فكان الليل والنهار وظهر من المياه قارات وهواء ثم نبات قبل الحيوان الذى بدأ فى الماء وصار جلد السماء هو الهواء . . إلخ إلخ .

ألم نقل أن تلك عادتهم ينزعجون بكل شيء ويهرعون لكل شيء حتى مجرد النظريات !

ومع ذلك فلا بأس !

فهنا ، وخلال هذه النظرية التطورية نلمح صورة ممتعة من الخيال الشعرى الفضفاض .

إن القوم هنا يقرءون صحيفة بعيدة جداً عن عيونهم . آنا يرون حروفها واضحة وآنا تتراقص أمام عيونهم تلك الحروف .

ومع ذلك فلا بأس أيضاً .

وما دامت التفاصيل غير مؤكدة .. وغير متفق عليها بين علماء النشوء فإن الخطوط الرئيسية هي التى يمكن الخلاف عليها أو الاتفاق عندما يتحدث العلم ويتحدث الدين ..

يقول أولئك العلماء وهم فئة من الكونيين والجيولوجيين ومعهم رجال علم الأحياء وأصحاب النظرية الداروينية ؛ يقولون فى تفسيرهم لبداية الكون بوجه عام :—

كانت السدم تملأ الفضاء فتكونت منها الشموس والكواكب ثم الأقمار .

وقال بعضهم .. كلا .. كانت النجوم وحدها ومنها شمسنا الدنيا ، ومن شمسنا انتزعت الأرض بفعل نجم ضخم كان قد اقترب من الشمس وحصل تجاذب وتمدد فانفجار .

ولكن فريقا ثالثا لا يوافق على ذلك ، ويذهب إلى أن الانفجار قد حدث في النجم ذاته ولم يحدث في الشمس ، فالأرض على ذلك ليست بنت الشمس وإنما ربيبتها .

ثم ماذا ... ؟

ثم هذا القمر — هل هو أصلا من الأرض ؟ بهذا يقول قوم ، ويشيرون إلى فجوة المحيط الهادى قائلين : لقد كان القمر هنا يوما من الأيام ، ولكن قوما رفضوا ذلك الرأى ، وذهبوا إلى أنه قد تكون من السديم العام كما تكونت الشمس والأرض تماما .

وهناك تفسيرات جانبية وخلافات طويلة نهملها ونسأل أنفسنا أين الحقيقة بين هذا كله ؟

لن نجدها ، وليس لنا إلا أن نقف أمام تلك الفكرة الرئيسية التي يا تقون عليها وهي أن هذه الأجرام كلها كانت كتلة واحدة وسديما يملأ الفضاء ثم تمخض عنها ذلك السديم المنتشر بطريقة أو بأخرى .

والمؤمنون لا تزعجهم هذه الفكرة ، ولكنها تقدم لهم تفسيرا علميا للآية القرآنية التي تقول : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » .

ونمضى مع العلماء فى قصتهم إلى نهايتها فإذا هي : أرض تبرد ببطء شديد . بخار معلق فى فضائها أو دخان . نسبة من الإيدروجين والأكسوجين تلتقى

على ذلك الجو الحار فيكون منها الماء ، ونسبة أخرى من الأكسوجين والنتروجين تتزاوج فيكون الهواء ، ثم يهبط المـــاء مدرارا فتنشق الأرض عن نبات يتبعه حيوانات صغيرة تعيش عليه وتتبادل معه الهواء فيعطيها النبات هواء نقيا ويحتفظ بثانى أكسيد الكربون ليلتقى مع الشمس فيصنع الجذوع والأثمار ؛ ثم يكون الصراع من أجل البقاء وينتهى بتفوق النوع الممتاز من هذا وذاك فيبقى ويتطور وينتهى بقمة هذا التطور وهو الإنسان .

تلك هى الخطوط الرئيسية والأحداث البارزة التى تحتوى عليها قصة الحياة على هذا الكوكب ، ولا نذهب فى تفاصيلها أكثر من ذلك .

فهل اختلف القوم بهذه الخلاصة الوافية عما يسوقه القرآن فى هذا الصدد ؟

سنرى . . . ولكن لنعلم منذ البداية أن القرآن لا يفرض فكرة تفصيلية عندما يتسع المجال للعقل البشرى بل يطلق له العنان إكبارا منه للعقل وتشريفا لمقامه عن أى إرهاب علمى يقتله أو يفرض عليه القيود .

من أجل ذلك أطلقه سائحا فى مناكب الأرض وجو السماء باحثا منقبا !

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

وعلى هذا النهج سار العلماء نظرا فى السماء والأرض وركوبا للأسفار شرقا وغربا للنظر فيما حفلت به القارات من حيوان ونبات وللضرب فى قمم الجبال وأعماق البحار والوديان ، وبذلك استطاعوا أن يحدثونا بالحديث الذى سمعناه .

ثم إن ترتيب الخلق يمشى مع منطق الحياة : فسماء وأرض ثم دورة للأرض يكون منها الليل والنهار ، وأخرى تكون منها الفصول ، ثم ابتراد يكون به تقلصات وفجوات ينحدر إليها الماء على نسبة غير طاغية وفى كثافة تسمح لكل سابح أو غائص أن يجتاز البحار والأنهار فلا ينقطع الاتصال بين اليابسة . ثم يكون فى مساحات تلك البحار تلطيف لجو الأرض وتوزيع لرياحها ، ويكون

فى ملوحتها مانع من تعفنها ، وفى تراميها مجال تجتاحه الرياح فتدفع السفن وتصنع الغيم وتسوقه إلى الأرض الموات فتحيا وتعطى الحياة للإنسان والحيوان .

وكل هذا نجده على نسق وفى بيان مشرق يقول : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار . والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

ولعل ختامها بمخاطبة العقلاء يشير إلى أن القرآن يزكى أعمال العقل ويهيب به لدراسة الكون وما خلق الله من شىء ، ويهوى بصفحة عريضة على أقفية الذين يكابرون فى هذه الحقيقة الواضحة .

ماذا بقى ... ؟

قصة التطور كما يصورونها .

إن هذه الآية توحى بها إذا صحت القصة فى يوم من الأيام ، وإذا لم تصح بقيت الآية بمعناها المعروف . وتلك بلاغة فى علم ، وعلم فى بلاغة ينفرد بهما القرآن .

والسلالات ؟

لا بأس من أن تكون هنا : « إنا خلقنا الإنسان من سلالة من طين » .

وإذا لم تصح فالقول كثير عند المفسرين .

ولدينا كذلك : « وخلقناكم أطوارا » .

ولدينا الحقيقة الكبرى التى تبتلع قصة التطور كما يراها أصحابها وكما يراها غير أصحابها : « أما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » والأحقاب الطويلة ؟

هل يستطيع أحد أن يحدد لنا طول اليوم قبل وجود الدورة الكوكبية التى تدل عليه أو الأجرام التى تعمل له ؟

لا أحد يستطيع . لا سيما ونحن أمام حقيقة الزمن فى ضلال وحيرة ،هل هو شيء قائم بذاته أم هو صنيع الحركة ووليدها . هناك شطحات طويلة عن حقيقته حتى ليقول أوغسطين : إننى أعرف الزمن فإذا سألتنى عنه فإننى أجهله كل الجهل .

وما هى حقيقة الزمن فى حساب الروح الأكبر الذى يسيطر على هذا الكون ؟

ربما قيل : إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون .

وربما قيل : فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .

وربما قيل : إن النسبية التى تضع الزمن فى تركيب المادة وتقدره باختلاف الأحاسيس يجب أن نسمع رأيها فى حقيقة الزمن .

مفاهيم تدخل بنا فى أعماق الكون وتضعنا على أعتاب المجهول واللانهائية المطلقة ، فنشعر إزاءها بالضآلة والعجز ونلقى بكل مانحمل من قوة وسلاح .

ومع هذا . وبعد كل هذا ، فموقف الإيمان أقوى إذا اختلف الرأى .

ذلك لأنه ، كما يقول نابغة العلوم فى العصور الحديثة ج . جينز : يجب أن يتوقف العلم عن إصدار أحكام ، لأن نهر المعرفة مازال يلتوى على نفسه .

هل يمكن خلق الحياة ؟

وتلك ثالثة الأثافى من الدعاوى العريضة التى تشدق بها قوم ذهبوا إلى الموت رغم أنوفهم وكانوا أحرص الناس على حياة .

تركوا الحياة رغما وهم يعرفون سرها ، فكيف ذلك .

خلية قالوا إنها الأصل ، وراح أفاق عالمى يدعى أرنست هيكل راح يزعم أن نوعا من الأحياء أطلق عليه (المونيرا) يعيش فى أعماق البحار كان بداية الحياة على الأرض وبتحليله أمكن العثور على سر الحياة .

ثم ماذا .. ؟ ثم لا شىء ، غير اعتذار ضخم إلى المحافل العلمية بأن اكتشافه كان وهما وخداعا . ثم أسف شديد لأن جماعة من العلماء قد أخذوا الأمر حقيقة مسلمة جريا وراء شهرة الرجل .

ونسمع القوم .. فماذا يقولون ؟

يقولون إن الحياة ظاهرة غريبة ، ولكنها مع ذلك ثمرة تركيب خاص طرأ على العالم المادى فى فترة من الفترات القصيرة فى عمر الأزل .

ثم هم لا يعرفون شيئا عن ظروف هذه الفترة ، وإن كانوا يؤمنون بأنها حدثت عن طريق الصدفة البحتة . وربما لا تعود .

أما الحياة فى ذاتها فلا يتحدثون عن ماهيتها وكنهها ، وإنما ما يزعمون أنهم عرفوا أسرارا كثيرة عنها ، إنها إذا وجـــدت فلا موت إلا إذا تعقد تركيب الكائن الحى وليس التلاقح شرطا لابتداء الحياة ، فإن الجراثيم والفيروسات كل حياتها وتوالدها ليس إلا انقساما وتكاثرا ، وإذا تهيأت لها الظروف الملائمة بقيت حية لا تموت ، أما الجسد المعقد فإنه يموت عندما يختل فى جهازه عضو ، واختلال العضو قد يكون وظيفيا وقد يكون اختلالا خلويا ، أى عجز الخلايا عن تجديد نفسها ، فتكون الشيخوخة والموت .

ويسوقون صورا من تجاربهم على الحياة : تجربة فى قلب كتكوت صغير فصلوا قطعة منه تحت ظروف معقمة وعزلوها عن الميكروبات وأمدوها بالدفء والغذاء فظلت حية .

أحياء قسموها نصفين فتكاملت كالأسفنج والهيدرا .

أحياء أخرى تبقى زمانا يمكن أن يمتد إلى الخلود متى وجدت فى ظروف ملائمة ، أنواع من الديدان يمكن أن يتجدد صباها كلما جاعت إلى حد الانكماش والتضاؤل ثم التهمت غذاءها بعد ذلك .: إلخ إلخ .

ذلك فهم جديد ... فما خطورته ؟

ليست له أية خطورة ، وليست فيه أية جدة .

فمن قبلهم قال أصحابهم إن ذرات الأيدروجين هى لبنات هذا الكون وعناصره الأولى ، وسمعنا .. ولم يخلقوا لنا كونا .

واليوم يقول هؤلاء أن المواد الزلالية هى أصل الحياة وركيزتها والوسط المهيء لوجودها .

ولم يكن تاريخ العلم إلا سلسلة من الإعلانات عن مكتشفات جديدة ومفاهيم جديدة ، عن الماء وتركيبه ، وعن الهواء وعناصره .. وهكذا .

لا جديد إذن لو أنهم عرفوا الحياة .

عرفوا الحياة ورغم ذلك يموتون !

لديهم أسرار الكيمياء وأسرار الذرة وميكانيكية الكون ولكن — وأسفا — لا تزال الآفات تلعب دورها وتمرح ، ولا تزال الأمراض العديدة تفتك بالبشر وغير البشر بما فيهم أولئك العلماء البهاليل .

وإنى لأذكر شيخا طيبا كان يفتح مكتبا فى قريتنا بمحافظة الدقهلية

يعلم فيه الصبيان ، وكان الشيخ يحظى بإعجاب الكثيرين ممن يحبون القصص فى سمر الليالى ، وذات ليلة سمعته يقول :

... وهل عرفتم العداوة بين القط والكلب ؟ سببها أن نوحا عليه السلام لما ملأ السفينة بالحيوانات أوصاها جميعاً بعدم التناسل لأن السفينة لا تحمل أكثر مما بها ، ولكن الكلب لم يسمع كلامه وخالط أنثاه ، فأسرعت القطة إلى سيدنا نوح وأخبرته الخبر فدعا على الكلب بالفضيحة . ومن يومها والكلاب مفضوحة أمام الناس كلما اجتمع كلب بأنثاه . ومن يومها والكلب يعادى القطة الفتانة كل العداء !

وهل عرفتم لماذا يشبه الفأر الخنزير والأرنب معاً ؟ سبب ذلك أن الفأر خرق السفينة فقتله نوح بأن سلط عليه الهرة فأكلته وهى من يومها تطيعه إلى الآن فتأكل كل فأر تلقاه ، وبعد ذلك طلب من الثعبان أن يسد الخرق بأن يدخل فيه ، ووعده بأن يحرقه ويذريه فى الهواء فيكون البق والناموس وسائر الحشرات التى تتغذى على دم ابن آدم وفعل الثعبان ذلك وأوفى له نوح . وأخيراً أمر الخنزير أن يواقع أرنبة فولدت فأرا .

وهل عرفتم سبب اللون الأحمر فى منقار الحمامة ورجليها ؟ ولماذا يتشاءم الناس من الغراب ويقولون فيه الأمثال ؟

سبب ذلك فيما يروى العلماء — نفعنا الله بعلومهم — أن نوحا عليه السلام أراد أن يتأكد من أن الطوفان يتناقص فى طريق الزوال ، وكان قريباً من جبل الجودى فأرسل الغراب ليأتيه بالخبر ولكن الغراب رأى جثة حمار طافية على الماء فهبط عليها يأكل منها ولم يعد إلى نوح ، فأرسل الحمامة فوجدت الجبل وقد ظهرت رأسه وأرادت أن تحمل الدليل على قولها فغمست منقارها ورجليها فى حمرة الجبل ، وذهبت إلى نوح فدعا لها بالبركة وحب الناس ، ودعا على الغراب بسواد اللون وكراهية الناس يهزءون به ويتشاءمون منه ويقولون فيه الأمثال .

وطرب الناس من قول الشيخ كما يطربون عندما يتحدث اليوم علماء الأحياء والكيمياء عن مكتشفاتهم البارعة وقصصهم الشيقة فى وصف الكون والحياة إلى آخر هذا الكلام .

ولكن الناس لم يكونوا يطلبون من شيخ القرية أكثر مما يقول ، فهل نكتفى نحن بمجرد القول من أولئك العلماء ؟

كلا .. إن عجزهم أمام قسوة الطبيعة وما نشاهده من حيرتهم بل وما نسمعه من أن المبيدات الحشرية والمطهرات أصبحت لا تعمل عملها لأن الحشرات والجراثيم عرفت كيف تكتسب المناعة أمام كل محاولات العلماء ، كل هذا يفضح مقالاتهم ويجعلها مجرد ادعاءات يزينها غرور الإنسان .

بل إن عمليات التهجين وهى أعظم النتائج فى نظرية دارون وفى علم الأحياء قاطبة ، لم يستطع أولئك العلماء أن يستفيدوا بها أكثر من أنهم نقلوا بعض الحيوانات والنباتات إلى أماكن غير بيئتها لتحسين النسل والتفوق بالنوع فكانت كارثة انتقال الآفات معها إلى بقاع لم تشهد تلك الآفات من قبل .

ثم لم نسمع أنهم أخرجوا من أنواع النبات والحيوانات المعروفة نوعا مغايرا لها حتى يثبتوا لنا تسلسل الأنواع .

وها هى أمراض السرطان والسكر والشلل والأمراض العصبية بل وحتى الانفلونزا وغيرها من الأمراض التى لا تزال تفتك بالبشر ، ها هى تعمل عملها فى طمأنينة وهدوء لا يزعجها سوى تهريج هؤلاء العلماء وصراخهم حولها من غير طائل .

ولن نطيل كثيرا فى هذا المقام .

ولكننا نسأل أولئك العلماء : ألا يمكن أن يكفوا عن نغمة التهريج العلمى

والمبالغة كلما لاح لهم فهم جديد أو جاءت مخيلاتهم بنظرية تلو أخرى أو على أنقاض أخرى ؟

أكبر الظن أنهم لا يكفون ، فالإنسان هو الإنسان ، وهذا الإرهاب العلمى والإدعاءات العريضة ميراث عريق يرجع إلى عهود الكهانة القديمة التى كانت تهوش الناس بأسرارها المزعومة وتدعى قدرتها وسيطرتها على المجهول وتصرفها الكامل فى عالم الأرواح والأشباح ،

إنهم يدعون اليوم خلق الحياة .

وذلك من أجل بضعة معلومات وصفية تحدثوا بها فى الطبيعة والكيمياء والتشريح حتى ليطلب أحدهم أن يقدموا له المواد والزمن ليصنع إنسانا على يده وذلك ليبعد فكرة الإله عن عقول البشر ، ويثبت أنه بالصدفة وحدها قامت قيامة الحياة فى هذا الكون ،

ونحن لا ندرى لماذا لم يقدم الناس له ذلك المطلب الرخيص ، ولا ندرى لماذا لم يتحرك هو فيقدمها لنفسه ، وحينئذ كانت تتحقق سخرية العالم موريسون فى كتابه (الإنسان لا يقف وحده) إذ يقول : ولكن الرجل — يعنى هيكل — نسى وحدات الوراثة والجينات وأغفل الحياة نفسها ، وحتى لو استطاع بنسبة ملايين إلى واحد فإنه يأتى بوحش لا مثيل له ، ولقال إن الأمر ليس مصادفة ولكنه ثمرة من عقله !

ولكن الرجل قد مات ، وكان أولى به أن يمد فى حياته بدلا من أن يصنع الحياة لغيره !

ويذهب بعضهم إلى أن المادة كلها تحمل مظاهر الحياة وعناصرها ، وضربوا لذلك مثلا ظاهرة (التبلور) ، وردوا عليهم بأن التبلور ما هو إلا ازدياد من الخارج وأن هذه الزيادة لا تكون ولا تتم إلا من نفس مادة النواه ، وليس هذا من خصائص الحياة ، لأن خصائصها أن يأتى النمو عن طريق الهضم

والتمثيل ، أى استحالة الشيء إلى نفس أنسجتها وخلاياها فى كل أنحائها ، ويكون ذلك من داخلها كما هو حادث فى جسم الإنسان والحيوان والنبات ، ثم لا بد من حساسية وإدراك ، أما الفكر فيقتصر على الإنسان وحده .

ويقول الفيلسوف المصرى يوسف كرم فى كتابه (الطبيعة وما بعد الطبيعة) « يقولون : بالتمثيل يحدث فى داخل الخلايا الحية تحليلات شبيهة بتلك التى تحدث عن الفواعل الجمادية ، وتحدث مركبات كيميائية من مواد دهنية توصل الكيميائيون إلى صنع مثلها ، خاضعة لعين القوانين، فليست الحياة مباينة للجماد ، ولكنهم يغفلون عن الفوارق الكبيرة بين الطرفين ، فالكيميائيون لم يصنعوا جميع المركبات ، والتى صنعوها ليست بمواد حية ، بل الأحرى أن تسمى مواد (حيوية) فلم يصنعوا ورقة نبات أو ثمرة أو عضلا أو عضوا ، مع أن المادة الحية لا تحتوى إلا على العناصر التى تحتوى عليها المادة البحت ، وصنعوا تلك المواد الحيوية بوسائل تختلف كثيرا عن وسائل الحى ، ففى الهضم مثلا لا يستخدم الحى الأحماض القوية ولا الحرارة العالية أو الضغط المرتفع ، وإنما تتركب المواد الحيوية ، تركيبا طبيعيا فى الحى فقط ، ولا توجد طبعا فى عالم الجماد ، وإذا كانوا قد أفلحوا فى تقليد الهضم فإنهم لم يفلحوا ، ولن يفلحوا ، فى تقليد التمثيل أو أى فعل حى بمعنى الكلمة » .

ولقد سبق أن عرضنا جانبا من مقالات العلماء التى يعترفون فيها بأن العلم لا يتحدث إلا عن ظواهر وانفعالات ثم يجتهد فى تعليلها ، أما أصول الأشياء وماهياتها فمجال آخر يبعد كثيرا عن منال العلم .

فإذا تطاولوا إلى أبعد من ذلك فقد صنعوا ما صنعه ذلك السكران الذى ذهب إلى بيته ليبحث عن طربوشه الضائع ، فلما سألته زوجته أين وقع ، قال لها أنه وقع فى الشارع ولكن الشارع ظلام ، وأنا أبحث هنا فى النور !

من أجل ذلك ومن أجل حديث العلماء بعيدا عن مجالهم كانت فكرة

الخلق التى يزعمها هيكل وأمثاله خليقة بأن توضع إلى جانب أفكار صاحبهم نيتشه فيلسوف اللامعقولية المشهور وصاحب فكرة (المراحيض النفسية) التى سارت بذكرها الركبان .

* * *

عندما نريد أن نخلق طائرا نصنعه طيارة من الحديد والخشب ، وعندما نريد خلق قافلة من الجمال نصنعها قطارا وبضع عربات ، ولكن هل فعلنا فى ذلك كله غير جهد الفنان والمثال والمصور ؟

خامات بين أيدينا وقوى من الطبيعة قدمتها لنا يد الخالق الأعظم فحاكينا الطبيعة الحية بالطبيعة الجامدة وانتهى الأمر .

وأين الحياة من هذا كله ، أين الهضم والتمثيل والنمو والإدراك والتعقل وأين تراث الفكر والتجربة ونظرة الحى إلى وجوده وإلى العالم من حوله على نحو من الأنحاء ؟

كلا .. إن الحياة روح مجهول وسر خالد هو أبعد ما يكون عن جهدنا المفكر وعالمنا الذى نعيش فيه .

وإلى جانب الحياة يعتصم الكثير من الألغاز والمعميات التى لم يستطع أحد أن يطأ حماها إلى اليوم .

لم يحدثنا أحد عن الناسلات ، والجينات . ما حقيقتها وما قصتها وهى التى تحمل سر الوراثة عبر القرون والأجيال .

لماذا تصر الطبيعة على وجود الذكر والأنثى ، مادامت الحياة مجرد تركيب تمخضت عنه الصدفة العمياء .

ماهذا النداء الغامض بين القلوب ، وهذا الحنين الجارف بين الجنسين من أجل غاية لاتوجد فى رؤوسهم فلسفة عن حتميتها ، ولا أعدوا أنفسهم لها بتلك الأعضاء المتقابلة التى تدل على قصد واضح وإعداد مقصود .

ماذا عن العقل والتعقل ، وماذا عن الجسم الصنوبرى الذى يتخذ مقره فى الدماغ .

ماذا عن الغريزة فى الحيوان والإلهام فى الإنسان .

ما خطب هذا النحل الذى يلبس براعة المهندس الصناع ليبنى خليته على هذا الطراز المذهل ، ثم بعد ذلك لا براعة عنده ولا هندسة .

والنمل . ما حياته ، ونظامه ، وعالمه ، ومن أين له ذلك النمط العبقرى فى طريقة عيشه وتصرفاته وإعداده لكل متطلباته من أجل الحياة .

والطيور والأسماك وكثير غيرها من العجماوات ، كيف تهاجر على دروب ومسالك لا تعرف شيئاً عنها ، وإلى أماكن وأصقاع لم تر أسلافها وهى تهاجر إليها من قبل ثم تعود ، وماذا يحملها على ذلك كله ويهتف بها من أعماقها أن تفعله .

متاهات وألغاز يدق العلماء أبوابها وما من مجيب .

معميات كثيرة يزخر بها عباب هذا الوجود المحير ، ولا نسمع من أولئك الأحبار غير أصوات جوفاء تدوى كالطبول ، وغير تبجحات ودعاوى عريضة لا تلبث أن تتبخر ويذهب صداها أمام صولة الطبيعة العارمة وأمام سننها التى تأخذ مجراها غير عابئة بهم ولا بما يثيرونه من ضجيج وصياح .

العلماء العاجزون أمام العديد من أمراض الإنسان والحيوان والنبات ، والحائرون أمام سر الشيخوخة والموت ، والغارقون إلى أذقانهم أمام سطوة الآفات الحشرية والظواهر الجوية والأنواع الشرسة من الجراثيم والميكروبات هم نفس العلماء الذين لا يشبعون حديثا عن الحياة وتحديهم لرب الحياة ، ولو أنهم عرفوا سرها لقضوا عليها فى الحشرة وأبقوا عليها فى أنفسهم وفى غيرهم من بنى الإنسان .

* * *

العقل والحياة هما ملاك الكون وروح الوجود ، تشير إليهما كل أصابع الكائنات عندما نسألها ماذا هناك .

وهما أيضا ذلك الحادى الذى يقودنا على الدرب فتتهدى عليه كل خطانا نحو الحقيقه الكبرى .. نحو الإله .

راحة وروح يمشيان إلينا ويغمران دنيانا عندما يغنى الطير ويتفوح الزهر ويمر الغمام وتسرى النسمات الرقيقة أو تعوى الرياح الهوج .

وعندما تلوح صفحة الشمس من خلف آماد طويلة وأسفار دونها قطع السنين والأحقاب ورغم ذلك تهدى إلينا كل يوم حياة ، وإذا المقدرات والموازين لعبت دورها فى كل شىء وبسطت سلطانها على كل شىء .

وإذا رأينا المسافات بين الأرض والشمس لو اقتربت أو ابتعدت لاحترق كل شىء ، أو تجمد كل شىء ، ورأينا البحار الواسعة لا تحلو فتتعفن ولا تضيق فيختل توزيع الرياح وسير السحاب وسقيا الأرض وإمداد الحياة .

وإذا رأينا أنه عندما يكون البرد يتقاص كل شىء سوى الماء ولو تقاص هذا لتجمد وماتت الأحياء فى جوف البحار .

وكثافة فى المياه لو شفت كثيراً لغرق السفين ، ولو غلظت لاستحالت فى أعماق البحار حياة ، ثم رقة فى الهواء لو أفرطت ماحمل الطير والغيم ، ولو خشنت ملامسه لاستحالت على الأرض أو فى الفضاء حياة .

عندما نرى كل ذلك ، ونرى الزفير يخرج منا فيأخذه النجم والشجر ثم يرده إلينا نسمة رقيقة كلها صفاء ونقاء .

وعندما نطل على الأرض الخضراء والجدول المتدفق يغنى حوله الطير ويرقص الزهر .

عندئذ تهزنا روعة الخلق وجلاله وحكمته ، ولا نملك إلا أن نصوغ من هذا الجمال صلاة لرب العرش ، وحداء نغنى به فى موكب الطبيعة الحالمة ، تسبيحا لخالقها ، وهتافا من سويداء أعماقنا : تباركت ياذا الجلال !

هذا عندما يخالطنا صفاء القلب وإشراقة الوجدان .

أما هؤلاء الذين يعيشون فى جلودهم ولا يؤمنون بغير المصانع والمعامل والقوارير ، فلديهم ما لو أنصتوا إليه لحدثهم أصدق الحديث وأروعه .

لديهم أعاجيب الطبيعة والكيمياء وما تتحدث به عن التدبير فى الخلق وعن دقة الموازين ووضوح القصد فى مقابلة الأشياء ، وسوف لا يجدون تفسيرا لذلك — لو عقلوا — إلا أن عقلا علميا وهندسيا فوق كل العقول قد صاغ تلك القوانين وحددها وأسبغها على تلك الأشياء .

سيجدون فى الديناميكا جهاز الكون وقوى الطبيعة تنطق بالحق وتدلى بأفصح لسان وأحلى بيان عن قوة قادرة تعمل عملها فى كل شىء وتلعب دورها فى كل زمان ومكان .

وسيجدون فى علم الأحياء قصة الصراع وملحمة الحياة كما صاغها الخالق وحدد لها المناهج والخطوات ، فيكون التطور نفسه آية تتحدث عن خالقها ، وعن رحلة الشوق إليه سعيا على مدارج الكمال .

أما الأعضاء ووظائفها فصورة مذهلة تحمل فى أعطافها أبهى وأجمل أسرار الوجود ، هذا الجهاز البارع الذى يمضى فى طريقه دائبا فى الليل والنهار دون أن يظهر من حوله يد تحركه أو مهندس يسهر عليه ، ولكن خيطا رفيعا يصله بخالقه ، خيطا رفيعا لا يرونه ولا نراه ، وإنما نحسه بمنطق العقل وشفافية النفس وإشراقة الوجدان .

وقفة على طلل....

ماذا بقى . . . ؟

تلك بضاعة القوم . وهذى لجاجتهم . نلمح بين طواياها : إما تحركات موضعية ضيقة ، وإما نظرات كهفية لا تنفذ إلى غايات الوجود وأنحائه ، أو لجوء إلى سفسطة غير مجدية ومنطق خواء لا يحمل إلا الخيال السقيم من قوم يزعمون أنهم أبناء الواقع وأعداء الخيال .

ويبن لنا أيضاً أن دعاوى القوم أكبر من أقدارهم ، وأنهم ضحايا للون من الغرور المدمر . وأنهم يمثلون ردود الفعل ورجعة البندول عندما يصل إلى نهايته ، وما هذا الضجيج الذى يملأ الدنيا سوى الانفجار الحتمى لمجتمعات عاشت زمانا تحت ضغط المتزمتين والمتعصبين من رجال الدين فى أوربا خلال العصر الوسيط .

لقد عاشت هذه البقاع دهراً طويلا تعانى من تعصب للدين . وبعد ذلك عانت من تعصب للعلم فى زمن النهضة وبعده . ثم كان أن أدركها القرن العشرين وهى تترنح بين هذا وذاك .

ونلاحظ أن مؤرخى النزاع بين الدين والعلم قد أخذوا يجففون أقلامهم فلم يعد هناك ما يؤرخونه بعد مطلع هذا القرن كما صنع من قبلهم رواة النزاع بين الدين والفلسفة .

ذلك لأن الفلسفة العامة ، منذ كانت فى مرحلتها الأولى على أرض اليونان، لم تكن تشعر بالمنافسات السماوية العنيفة إلا بعد أن هبطت من سماء الشرق أضواء الديانات الكبرى . ثم أخذت هذه الفلسفة — شأن كل كائن حى — تدافع عن بقائها . ولم يكن هناك عدد كبير من المشاكل التى كان يجب تصفيتها من خلال هذا النزاع ، فقدامى الفلاسفة الطبيعيين الذين تركوا واقع الحياة إلى تحليقة كبرى فى سماوات الشعر لم يستطيعوا الثبات طويلا فى معاركهم المحلية التى لم تكن تدور يومئذ على أرض صلبة . فلا الذين قالوا أن أصل

الكون هو الماء قدموا الدليل على قولهم ، ولا القائلون بأصالة الهواء والنار والتراب استطاعوا أن يظفروا بانتصار يكتب لأقوالهم البقاء .

كانت خلافات قوية فى مظهرها ، ضعيفة فى أصلها ومخبرها ، فما لبثت أن أطاحت بصبر الصابرين ، فانهزمت هذه الفلسفة اللفظية القديمة واحتلت أرضها أفكار جديدة تمثلت فى حملة السوفسطائيين على هذه الفلسفة ، واعتبارهم تلك الخلافات البعيدة دليلا على أن الحقيقة لا يمكن إدراكها كاملة . وإنما هى حقائق نسبية تأخذ ألوانها من أمزجة الناس ونظرتهم الشخصية إلى الأشياء . وهناك تعددت الحقائق وتعددت الأباطيل وانطلقت من عقالها فوضى عربدت فى حقول الفلسفة . ولعبت دوراً لم يسدل ستاره إلا على يدى الحكيم اليونانى سقراط .

ثم رفع الستار مرة أخرى عن طراز من الفلسفة جديد حمل لواءه إفلاطون ثم رفعه عاليا أول عقل منطقى ظهر فى التاريخ القديم وهو أرسطو .

والواقع أن الانبثاقات التى تفجر عنها ذلك العقل الكبير يمكن أن نعدها إرهاصاً لعصر تفلسف الديانات الكبرى التى وفدت بعد ذلك فلاقت رحابا فى فلسفته ، كما وجدت فى لفتات أستاذه تحية علوية بمقدمها ، ثم قامت بينها جميعاً صداقات أخذت طريقها عبر تاريخ ليس بالقصير ، وسادت بقاع الشرق والغرب ، فتفلسفت الأديان وتدينت الفلسفة . غير أن خلافا كان لابد أن يقوم على طبيعة الكون وتفسيره خلقاً وزمناً ، فقام صراع .

لكن هذا الصراع لم يشمل جوانب المشكلة وكل أطرافها ، كما أنه لم ينتظم فى سلكه جميع الفلاسفة والمتصدين لمسائل الفكر فى كل العهود .

ثم جاءت على الغرب سحابة القرون الوسطى . وقامت فى الشرق عقول لها طبيعتها حاربت الفلسفة باسم العقيدة . ووجدت من العامة والجماهير استجابة لها ، فاهتزت بقاع الشرق تحت أرجل الفلاسفة والمفكرين فآثروا السلامة

والفرار ، وتركوا تلك البقاع جفافا تعانى من الجدب الفكرى بفضل حملات أمثال الغزالى وابن الصلاح ، كما أخذت تعانى أزمة قاتلة فى مجال الدين ذاته بما حدث من قفل باب الاجتهاد الفقهى ، فعاشت تلك المجتمعات راكدة تجتر أصداء الماضى بخيره وشره . فكان من كل ذلك نكسة أخذت مداها فلم يلمع خلالها غير محاولات محدودة فى تدوين المنطق الأرسطى ؛ وغير لمحات من الفكر العلمى جادت بها عقول مذعورة . وبعض نتائج قدمتها تجارب عملية لأمثال الرازى وابن الهيثم وجابر بن حيان .

ظل الدين والفلسفة يسيران على درب ويمشيان إلى غاية واحدة ، فكانت الفلسفة فى هذا الشوط تحمل فى أحشائها معرفة الإنسان وعلومه . حتى جاء وقت انفصال العلم وابتعاده عن مجالات النظر إلى مجالات التجربة والاختبار وراحت فروعه تمتـــد إلى آفاق بعيدة وتسرى نحو التخصص فى كل حقل ومجال .

ثم كان عصر النهضة فى أوربا وتعصب المدارس العلمية التى عانت طويلا من تعصب الكنسيين ، فأخذت على عاتقها رسالة مقدسة لديها هى الانتقام من رجال الدين والسخرية من بضاعتهم وفضح جمودهم أمام مجتمع يصفق بالتهليل عند كل جديد .

وهنا بدأ احتكاك ضخم لا ننكر لفح اللهيب الذى اندلع من جرائه يومئذ ، فعانت منه الكنيسة الأوربية ألوانا من العذاب النفسى فوق عذابها الذى لاقته عندما أعلن عليها التمرد راهب الألمان الخطر الذى يعرفه التاريخ باسم مارتن لوثر .

ابتعد العلم عن الفلسفة وابتعد عن الدين كذلك . وأمام البريق الذى خطف الأبصار يومئذ من فتوحات العلم لم يجد رجال الكنيسة بدا من القيام بتأويلات بعيدة المدى فى كتبهم المقدسة يبغون من ذلك أن يستووا مع

العلم على طريق حتى يحفظوا الإيمان أو بعض الإيمان على قلوب بدأت تتقلب على شك ، أو تصبح خواء من الإيمان .

لكن فكرة الخلاص فى قصة المسيح . وتبعا لذلك خطيئة آدم التى ورثها كل البشر من بعده لم تكن تلق قبولا يومئذ عند رجال الفكر . كما أنها تفوقت فى صراحتها على كل تأويل وتوفيق . كذلك كانت قصة الشمس لما وقفت ليوشع النبى فإنها لم تجد غير السخرية من علماء الفلك الحديث بعد ما أصبح موثوقا لديهم أن الشمس واقفة وأن الأرض هى التى تدور .

وأصبح ثابتا فى أدمغة العلماء أن السنن الكونية التى شرحها نيوتن ولابلاس وغيرهما قد زحزحت فكرة (الإآله) عن موضعها . حتى أن نابليون بعد أن قرأ كتاب لابلاس الذى تحدث فيه عن تكوين العالم راح يسأله : ماذا تركت فى كتابك لله ؟ فأجابه الرجل فى صلف وكبرياء : لست مضطرا يا سيدى لأن أومن بشىء لا حقيقة له !

مشكلات لا حصر لها أحاطت برجال الدين فى ذلك العصر . ففرشت على مضاجعهم شوكا وأرثتهم الويل والسهر الطويل . وبدأت محنة الدين تأخذ مكانها فى ممالك أوربا كما أخذت مكانها قبل ذلك محنة العلم .

ولو أن الصراع يومئذ كان قائما بين الدين والعلم لحسب لهان أمور ، ولكنه كان بين رجال ورجال . ثأرا لا يهدأ وحربا ضروساً لا يخمد لها أوار .

انقلبت موازين الفكر بين جماعة المثقفين . وانطلقت دعاوى العلم مجنونة تتناول كل شىء وتفسر كل شىء . وقامت دعوة تنادى بأن ألفاظ الكتب المقدسة وعباراتها لا تعـــدو أن تكون رموزا وكنايات تمثل فكرا قديما ، لا نملك القدرة على فهمه ولا حيلة لنا إلا الوقوف أمامها فى رهبة أو نذهب حولها كل المذاهب والتأويلات .

فالشجرة التى أكل منها آدم ليست إلا رمزا للمعرفة . والجنة التى أخرج منها ليست غير بستان على ربوة عالية من ربوات الهند أو عدن ، والشمس التى وقفت ليوشع إنما ظهرت كذلك والحقيقة أنها الأرض هى التى وقفت وهكذا إلى آخره .

والتأويل عند حملة النصوص القديمة مسألة تتفاوت فيها الكفايات والثقافات وأكثر ما يظهر فى تلوينها إنما هى ألوان الثقافة وأمزجة الأشخاص .

وإنى لأذكر فى مجلس من مجالس الأدب طبيبا كان معروفا بيننا بأنه خليفة دارون وذلك لكثرة ما يتحدث عن نظريته ويتحمس لها .

وذات يوم دخل علينا ذلك الطبيب ومعه بيت من الشعر يقول :

عبالة عنق الليث من أجل أنه إذا رام شيئا قام فيه بنفسه

ثم قال : انظروا .. هذا شاعر قديم يشاطرنى حب دارون ويشير إلى ركن ضخم من نظرية التطور وهو أن العضو يقوى ويكبر إذا كثر استعماله بينما يضعف ويضمر إذا أهمل .

وهكذا يذهب أهل التأويل كل مذهب يطيب لهم بحكم ميولهم النفسية ومشاربهم الثقافية التى تتحرك عندما يقرؤون، حتى قيل إن الناس يفهمون النصوص لا حسب ما يقرؤون ولكن بمناسبة ما يقرؤون .

وفى الشرق ملأت هذه التأويلات البعيدة جانبا خصبا من تراثه ، وأصبحنا أمام ثروة ضخمة من مفاهيم الكتاب والسنة . تركها لنا الشيعة والمعتزلة أو دبجتها يراعات أهل السنة والمتصوفة والخوارج وغيرهم من بقية الفرق التى ملأت تاريخ الإسلام .

ونعود إلى عصر النهضة فى أوربا ومابعده فنلتقى بألوان من العربدة العلمية

التى كانت تهيم فى كل واد وتضرب فى كل مجال . وكانت هذه الظاهرة فى عمر العلم أشبه بفترة المراهقة فى عمر الشباب .

وأتعب رجال الدين أنفسهم وراء العلماء اعتقادا منهم بأن صحائح العلم قد دانت للأخيرين وأنه لم يعد فى الإمكان أبدع مما كان .

ولكن نهر المعرفة عاد فالتوى على نفسه . وبدأت تختفى نظريات وتقوم على أنقاضها نظريات مغايرة أو معدلة ، وسخرت حقائق الكون من مفاهيم العلماء ، فاستداروا على أنفسهم يضرب بعضهم وجه بعض ، واضطربت معالم كانت تلوح لهم وكأنها أصدق الحديث عن الكون وأسراره فإذا هى علامة ساخرة ، وإذا هى سراب واهم وضلالة حائرة فى منتصف طريق طويل .

هبت رياح على علمى النفس والاجتماع وتوارت منهما مقررات كثيرة كان الناس يطمئنون إليها ، وسخر منها فلاسفة كبار أمثال غوستاف لوبون وسبنسر . كما سلط آخرون ألسنتهم على تاريخ الاجتماع . ووجدنا من يقول أن المجتمع لا يتطور دائماً إلى خير ، وأنه لو كان الارتقاء سنة صادقة من سنن المجتمع لما رأينا العصور الوسطى تجىء بظلامها على كل ما فى العصر اليونانى من خير وفكر ممتاز . وطلعت كتابات تهاجم أفكار كونت وتعلن أن المجتمعات لا تمر على ثلاثة أطوار كما يقول ، وهى طور الدين وطور الفلسفة وطور العلم ، وإنما هى ألوان تسود المجتمع فى عصر واحد . بل إن الخيال الذى سيطر على تفكير المجتمعات القديمة عاد فساد تفكير الكثيرين من متأخرى الطبيعيين فجاءوا بالافتراضات الكثيرة . كما أن التجسيم الذى سيطر على عقلية الوثنى فى طفولة التاريخ هو التجسيم الذى يدين به متشددو الطبيعيين فى عصرنا الحاضر .

كذلك عصفت رياح التغيير بنظريات كثيرة فى علوم الأحياء .. ولقيت نظرية النشوء والارتقاء ما لاقت من هجوم وسخرية على أيدى علماء فى قمة المجد العلمى . كما لقيت نظرية التولد الذاتى ما أطاح بكبريائها فتركت عرشها

وانطوت فيها انطوى ، بعـــد أن أعلن مصرعهـا عالم الفرنسيين الأكبر لويس باستور .

وعادت النظرية الفيثاغورثية والسبحات الأفلاطونية تفرض سلطانها من جديد بعد أن خلعت الذرة ثوبها المستعار وألقت بردائها الخشن ثم طارت شعاعا وانقلبت إلى سلسلة من الأرقام والمعادلات .

ولقد عاش البناء الآلى للكون زمنا وتربعت الجاذبية التى صاغها نيوتن على قمة الكشف العلمى حتى اغتالها العالم الرياضى أينشتاين ، غير بعض أشلاء منها تبعثرت هنا وهناك . ومن يدرى لعل تلك النسبية البديعة التى تبهر العالم اليوم تنتظر بدورها مصرع الجاذبية من قبل فتخلى مكانها لغيرها وغيرها من النظريات .

وقصة العناصر هى الأخرى تقلبت بها الأحوال كما تقلبت بميكانيكية الكون . حتى بعض هذه السنن التى كانت لها صفة الحتمية أخذت تتوارى تحت ملاحظات شلة من العلماء وبعد أن أثبت العالم الجرمانى هيزنبرج اختلال التجارب واختلاف النتائج المتشابهة فى مقدماتها . فسقط بذلك مذهب الحتمية بعد أن ساد زمنا . كما لوحظ انتقال كهارب وإشعاعات من دورة لأخرى دون قاعدة محتومة أو محددة . وربما تمخض الغد عن فكر جديد يقترب بنا نحو الإيمان بالكرامات والمعجزات .

وعندما وضعوا تحت أبحاثهم قصة الخلق ، هامت فى سماوات الخيال نظريات لا تزال تسخر بعضها من بعض ، ودارت هذه النظريات حول :

خلق السدم والأجرام

المجموعة الشمسية التى نعيش على كوكب منها وموضعها من الكون .

الحدوث والقدم .

الكون المحدود والكون غير المحدود .

ظواهر التغير وما تشير إليه من بداية ونهاية جريا على القضية المشهورة في المنطق الصوري وهي أن كل متغير حادث وكل حادث لابد أن يزول .

عمر الأرض وبداية الحياة . وماكان وما يكون .

الصدفة والخلق . وما هي العمليات الرياضية التي تحول دون الصدفة ، وما هي المعالم التي تتحدث عن حتمية الخلق ومنطقية النشوء والتطور دون الخروج على النوع .. الخ.

أثيرت هذه المشاكل وغيرها من جديد، فدارت حولها معارك وثارت عجاجات ملأت سماء هذه الحقبة من تاريخ أوربا .

هذا جانب من حكاية الصراع الفكري والعلمي الذي شهده عصر المراهقة العلمية الذي أعقب جهل القرون الوسطى ، ثم جاء وقت تصفية الحساب .

جاء القرن العشرين ليشهد أطلالا خلفتها معارك الماضي وعربدة القرنين اللذين سبقاه وانحدرا إلى غيابة الأزل. وبدأ هذا القرن ينظر إلى المسائل نظرة موقرة تتسم بالعمق والرجولة العلمية في أكثر المجالات .

كل شيء يتحول ويتبدل . وكل مكتشف لا يحل غموضاً وإنما يفتح أبوابا لعدة اسئلة جديدة حول ذلك المكتشف الجديد فعندما تكبر الشجرة ويعظم حجمها تتكاثر فروعها في كل اتجاه .

فالذرة مثلا كانت جوهرا فردا أو جزءا لا يتجزأ في نظر القوم ، فإذا هي ملحمة دوارة الرحى، وإذا هي عالم جديد يتطلب دراسة وجهدا وتساؤلا عن حقيقته. تلك الحقيقة التي لم يعرف العلماء عنها إلا أنها قوة تحمل الهول والفزع وترسل من حولها شعاعا . ونورا ،أما كيف يحدث هذا من ذرة لا نحس بها ولا نضربها إلا مثلا للتفاهة والخشونة والظلام ، فذلك هو الذي سيسبح فيه العلم والعلماء سبحا طويلا .

بينما يجلس المؤمنون على شاطىء هادىء يطلون منه على بحر كله سنى وسناء وكله نور وضياء ، يتلاقى فى قلوبهم مع ومضة بارعة يحملها الزمان إليهم منذ أربعة عشر قرنا لتقول لهم : الله نور السموات والأرض .

فى هذا القرن توسعت البحوث العلمية ومضت فى كل اتجاه تتساءل عن سر الحياة وسر الوجود . ولم تعد هذه الفترة من الرجولة العلمية تؤمن بما يقال من كلمات خفيفة طائشة يرسلها المشعوذون والمتسرعون من العلماء . وانطوت صفحة الغرور العلمى وأصبح مألوفا أن ترى عالما فى التشريح أو فى الطبيعة والكيمياء أو غير ذلك من فروع العلوم ، تراه وقد خلع رداءه اللامع وارتدى بردة المتصوف وانطلق بعيدا ليتطوح فى عالم الدراويش .

وعرفت مجالس البحوث الروحية أمثال كروكسى ولمبروزو وبلفور ، ودكتور باورز واليفرلودج وآرثر فندلاى وصفوة من العلماء هم سادة على قمة المجد العلمى .

ووقف الدين وقفة كلها ثقة ، يمر به العلماء كلمى هزيمة وصرعى جراح لا يتقلب مع المتقلبين ولا يستخفه ما يرى وما يسمع من صراخ وتهريج .

إنه فقط يسلط الضوء على الكائنات بحسبانها طريقا إلى الله . دون أن يفرض على العقل ما يعطله أو يحد من انطلاقه ، فالأرض كروية لأن الله يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، والأرض بعد ذلك دحاها فهى موطأة للعيش كما تدحو النعامة لبيضها أرض الصحراء من الحصباء .. والذرة تتحطم بعد أحقاب وأحقاب لتؤمن الدنيا بأن الذرة ليست بأصغر جزء فى هذا الوجود ، وإنما الحق أن يقال مع القرآن : لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين .

كذلك للشمس مسيرة وللأرض مسيرة ، كلاهما يتحرك لغاية وبصورة معينة .

والكون يتسع والاحتراق فى ذرات الكون دوار لا يهدأ ولا ينقطع .

كل هذه إشارات قرآنية على العقل أن يأخذ منها بداية انطلاقه إلى المجال الرحب الذى خلق من أجله . وحسب القرآن أن يثير المشكلة فقط . حسبه أن يقول وإنا لموسعون . . . يزيد فى الخلق ما يشاء . . . يكور الليل على النهار . . . والشمس تجرى لمستقر لها . . . رفع السماء بغير عمد ترونها ، فلا أقسم بمواقع النجوم . . . إلخ إلخ . حسبه وهو كتاب دين أن يقول هذا ويمتنع عن فرض شروح تمنع العقل عن تطلعاته وتفسد عليه رسالته وتخضعه لحملة إرهاب علمى يستكين لها ويقنع بما ألقت إليه من قليل أو كثير . . .

حسبه أن يعطى الحقيقة وفصل الخطاب فى كل قضية يعرض لها . . تاركا شرحها لمدرسة الزمن وكفاح العقل . ثم يأمر هذا العقل البشرى أن يؤدى رسالته: « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » بل وأمده بالأمل الواثق فقال « ولتعلمن نبأه بعد حين » وقال أيضاً « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

ثم ماذا . . . ؟

ثم لا ينبغى لنا أن نمر هكذا دون أن نسأل فلاسفة العصر عن طبيعة الرجل الذى أثار ذلك كله ووضعه كتابا خالداً يتنقل بين أيدى الأجيال .

هل يمكن أن يكون مثل هذا الرجل دجالا يبيع الشعوذة على أرض الجهل والجاهلين ؟

هل يمكن أن يكون ذلك انطباعا لثقافة العصر الذى عاشه محمد النبى العربى أو انعكاسا لحياة البادية التى درج على ثراها منذ ولد إلى أن مات ؟

إنه لم يبرحها إلا إلى الشام حيث التجارة ولا شىء غيرها .

وهل كانت بالشام جامعة يختلف إليها خلال زورة خاطفة لتلك البلاد ؟

وحتى لو فعل فما جدوى زورة خاطفة يمر بها على مجالس السريان أو

مدارس نيسابور وهو لم يتهيأ لها من قبل، ثم إنه لو اختلف إليها فلن يجد فى ساحتها إلا علوم القدماء ، ولم تكن تلك العلوم غير أفكار مجردة ونظريات عتيقة تطوحت إليها من أروقة آثينا أو مدرسة الإسكندرية . . وغير أخيلة عاشت على أرض الصين والهند منذ قديم . وكلها أفكار ليست من هذا الطراز الذى تركه الرجل .

كذلك لا نحسب أن صخور الحجاز وحصباءه يمكن أن تلهم علما أو تعرض أمام عينيه صحيفة الكون يقرؤها وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يلتقى بغير الأمية والجهل أينما توجه فى مكة أو غير مكة . ثم بالصمت المطبق الذى أحاط به وهو يتحنث فى غار حراء .

استطراد لا أريد له أن يطول .

وإنما أعود إلى القول بأن الإيمان فى صورته النقية لم تعصف به أية ريح هوجاء ، بل وقف شامخا أمام الأحداث والتغيرات التى طرأت على فكر الإنسان . وتحطمت عند أقدامه كل فكرة زائفة وكل تأويل باطل لمظاهر الكون يراد به إشباع نزعة متطرفة من غرور العلماء .

ولقد رأينا فيما مر بنا — وسوف نرى — جانبا ضخما من هذا التراث الفكرى ، ورأينا كيف أضحى جانب منه حطاما ممزقا أو أطلالا تعوى على جوانبها الرياح . . . فعلى الذين يحفظون النصوص المستفيضة من مقالات العلماء والفلاسفة فى الغرب والشرق ويريدون تطبيقها على مواريث النبوة ثم يصيبهم الحزن إذا أخفقوا . على هؤلاء أن يهونوا على أنفسهم فليس هناك من خطر على الإيمان .

وبعد ذلك ، فنحن نعيش فى عالم حائر مضطرب يعانى من العلل والأدواء ألوانا وتتكدس فيه المشاكل المتعددة وكلها باقية ، وربما ستبقى ، بغير حلول .

صراع على كل أرض واختلاف على الأخلاق والقيم ، ودفاع بلاجدوى عن العديد من المذاهب الاجتماعية والاقتصادية ، ومعسكرات تتنازع الأرض وترج أطرافها لتعلن عن حق تعكره معسكرات أخرى . ويعز اللقاء وتقوم الحروب لتنهض على أعقابها مشاكل أخرى لا يحلها إلا الحروب ، وهكذا دواليك حتى يعترف الإنسان بقصور عقله وفساد طبعه وحاجته إلى النبع الصافى ، النبع الذى لم تعكره أهواء البشر ، إلا وهـــو التراث الغالى تراث السماء .

هياج فكرى لا حدود له ولا ساحل له . ولكنه لم يقدم لنا غير تطور فى حياة الإنسان ومعيشته المادية بما وفره من خدمة آلية ، لا نحسبها أسعدتنا كما كانت الحياة المبسطة تسعد آباءنا القدماء . بل إن مشكلة المشاكل فى عصرنا هى أن الإنسان قد أصبح رغم ذلك كله شقيا بعيشته شقيا بدنياه .

تعقدت النفوس بتعقد الحياة ، وامتلكها يأس قاتل يوشك أن يكون طابعاً لذلك العصر . وسمة من سماته التى يعرف بها .

كل هذا والعلم حائر لا يصنع شيئا لأنه لا يعرف سوى الآلات والأجهزة الصناعية يصول بين أشكالها ويجول .

ولا نحسب أن شيئا يصلح هذا الجهاز الأكبر وهو الإنسان إلا وقفة من الهدوء والتعقل يعود بها إلى نفسه ، وإلا رجعة تائبة يعود بها إلى رحاب الأديان .

وبعد ..

فإن الإيمان .. والإيمان الذى يقف من ورائه العلم ، هو الدوحة المورقة والظل الظليل ، وهو جنة القلب الحائر يأوى إليها عندما ترجه الحادثات وتطارده المزعجات فى عصر القلق الذى نعيش فيه ..

إنه الإيمان الذى ملأ قلب نابغة العصور الحديثة ألبرت أينشتين عندما نظر إلى جلال الكون فقال : « إن أعظم جائشة من جائشات النفس هو ما تشعره أمام هذا الخفاء الكونى ، وإن الذى لا يكون كذلك فهو حى كميت . . . إن وراء هذا الخفاء شيئاً هو الحكمة أحكم ما تكون ولا تستطيع أدراكها عقولنا القاصرة إلا فى صورة بدائية وإن هذا الإدراك للحكمة والجمال هو جوهر التعبد » .

كانت هذه اللفتة العبقرية أروع مثال يعبر عن نظرة العلم فى رجولته المعاصرة إلى الكون بعد أن ترك مرحلة المراهقة من عمره وتعقلت نظرته إلى الأشياء فاستشف جلالها وأدرك أن وراء مظهرها جوهرا لا نعرفه وحقيقة لا نملك إزاءها غير وقفة الخاشع المتأمل نصوغها تعبداً وصلاة .

وذلك ما نعنيه عندما نقول إن لقاء قد حدث بين الدين والعلم ، أى لقاء من قدحة العقل العلمى وومضة الوجدان المستشف إزاء الحقيقة الكبرى .

أما عندما يصف كل منهما الأشياء ويتحدث عنها فإن العلم لا يتجاوز هذا المظهر الخشن الذى نحس به . وإن تكلم بلغة أرق . ومن أجل ذلك يجب أن نتلقى حديثه فهما ، بينما نصغى إلى الدين ونتلقى حديثه وعيا .

وذلك ما نعنيه أيضاً عندما نقول إنهما لا يلتقيان .

ومن أجل ذلك فنحن لا نذهب مذاهب الذين يصنعون هذا اللقاء ونراهم يكلفون أنفسهم كثيراً وراء محاولة ثقيلة الظل لا يبغون من ورائها إلا الظهور تحت الأضواء .

العلم والدين دائرتان متقاطعتان يشتركان فى جزء منهما ، كبر هذا الجزء أو صغر ، ولكنهما لا يتطابقان أبدا ، وسيبقى ذلك ما دام للعقل دور وللقلب دور آخر ، كما للسمع وظيفة وللبصر وظيفة أخرى .

سيبقى الغيب للدين وحده . فإذا تكلم العلم فعن إمكانية هـــذا الغيب أو ضرورته قياسا على ماللعلم من افتراضات هى فى الحقيقة غيب علمى لاتقوم دعائم العلم وأركانه إلا عليه .

فإذا قال الدين : ليس عالمنا المنظور هو كل ما يملأ وجودنا فحسب ، فإن العلم لا يستطيع إلا أن يسلم بذلك على وجه الإجمال . وإلا فعليه أن يتخلى عن فكرة الأثير ، والقوة ، والأفلاك العاملة فى الذرة ، وحقيقة وجود العقل والغريزة ، والفكرة ، والجاذبية ، والقوة الطاردة ، وما يربط بين الإرادة والحركة إلى آخر كل ذلك مما لا يستطيع إلا أن يفترضه ويسلم بوجوده لكى تسلم له تلك الصورة التى يرسمها للكون .

والعلم عندما يقف على شاطىء المنظور ، فهو إنما يقف مكانه . فإذا تطلع إلى أبعد من ذلك فإنه لابد أن يستعير من الفلسفة كثيراً من وسائلها ومن لغتها أيضاً لكى يتحدث عن الغيب . حتى المنطق الصورى وهو أساس الفلسفة القديمة لا بد أن يستعيره عندما يريد أن يقول : إن هذا العالم يتطور بكل ما فيه منذ ملايين الملايين من السنين وليست القوة المسيطرة عليه من التفاهة بحيث تفعل ذلك وتبذل فيه جهداً لتلقى به آخر الأمر فى سلة المهملات .

إن العلم ليتساءل مع الفلسفة : كم يحمل هذا الكون من أحاج وأسرار وكم يحمل الإنسان بين أعطافه من قوى وظواهر يدق أبوابها العلم دون أن تبوح له بشىء عن حقيقتها . . عقله وقلبه ، أحاسيسه ورؤاه أحلامه وتنبؤاته والربط بين تجاربه وما يعتمل فى باطنه وما يربط إرادته وحركته بل وما يصدر عنه من تقدير لقيم الأشياء مع أن المادة لاتملك هذه القوة وليس من سننها الآلية أن تأتى بهذا التقييم ولا أن تنطبع فيها التجارب أو تتحرك الذكريات دون أن يمحو اللاحق ما سبقه ، ولا أن تبقى له شخصية واحدة على طول أيام نموه مع أن خلاياه تتغير وأحواله المادية تتبدل .

ما هى ظاهرة التنويم المغناطيسى وكيف نتلقى الأحاسيس والأنباء عن بعد . وكيف نتجهم للحوادث أو نفرح لها وهى ما زالت جنينا فى بطن الغيب ؟

كل هذا وغير هذا ، ركام هائل من ظواهر النفس والحياة تعيش بين يدى العلم وتحت عينيه وهو عاجز عن أن يبدى فى أمرها أو يعيد .

ثم بعد ذلك . ماذا عن الحيوان وغرائزه ؟

ما هى تلك الغرائز . أهى إلهام . ومن أين ؟

من علم الطير أن يبنى عشه ؟ ومن علمه أن العش سوف تعصف به الريح إذا لم يترابط من جميع نواحيه ؟ من الذى غرس فيه الحنان والحرص على بقاء النوع ؟ من علم النحل صناعته . والنمل حرفته . ونصحهما بالتعاون والتساند ووضع الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية وبناء المأوى وادخار الغذاء ؟ . من الذى نبأ الزنبور أنه ميت وتارك وراءه ذرية عاجزة ولابد لها من حشرة تتغذى عليها ، فيصيدها ويلدغها فى غير مقتل لتعيش فى حنوط بين الحياة والموت حتى تكبر اليرقات وتتغذى عليها مع أن ذلك يحتاج إلى علم ودراسة فى التشريح ولابد أن يكون قد فعله أول زنبور عاش على هذه الأرض ؟

هذه الخلايا وتلك الغدد فى الإنسان والحيوان ، كيف جاءت إليها الحياة وركبت فيها الخصائص المختلفة ؟ من الذى أمرها بالوقوف هكذا على أهبة الاستعداد لكل ما يطلب منها ؟ من علم القلب أن له عملا غير عمل الكبد ، غير عمل المعدة ، لا يخطىء أى منها ولا يتعدى ؟ !

من الذى أرسل تلك الشرايين وأجرى الدماء دافقة تحمل إلى كل عضو غذاءه وتجديده على ما بين هذه الأعضاء من خلاف فى متطلباتها وطبائع أنسجتها . ثم جعل كل عضو يعرف لماذا يقف هنا . وما هو دوره الذى لابد أن يعزفه على قيثارة الحياة ؟

تسأل العلم عن ذلك كله . ماحكايته ، وماذا وراءه فلا يملك العلم إلا وصف ما يرى . أما حقيقته وماذا وراءه فشىء بعيد عن طاقته وما ملكت يداه .

ولكن الدين هو الذى يقدم لنا الإجابة . وبعبارة واحدة : إن إلهـًا قادرا يقف بقدرته وراء ذلك كله ، إلهـًا أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

والدين بعد ذلك لا يحتكر الحلول ولا يقيد العقول . بل ينادى بالعلم والتعلم ، ويهتف بعقل الإنسان ووجدانه ، ويقدم لنا ذلك الكون محرابا لكى نؤدى صلاة الفكر فى أسراره وعجائبه ، فنؤمن على بينة ونسلم وجها للذى فطر السموات والأرض وما بينهما (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) .

إن العقول السليمة لا تفهم الكون من غير خالق . ولا تستسيغ الحياة من غير دين ، والعلم وحده لم يستطع ولن يستطيع أن يقدم تفسيرا للكون والحياة ، لأنه لا شأن له بغير الظواهر البادية والمجسمات الملموسة ، وذلك شىء يغاير حقائق الأشياء ويبعد عن ماهيتها وجوهرها .

والإنسان بطبعه ُطلعة يريد أن يفجر أمامه ويعرف معنى حياته .

من أين جاء .

وماذا يصنع هنا .

وإلى أين يسير .

والعلم لا يستطيع أن يجيبه عن شىء من هذا . ولكن الدين وحده هو الذى يجيب .

***

من أين جئنا ؟

من العدم . .

ياللهول ! !

ستقوم قيامة العلماء الطبيعيين لهذه الخرافة المضحكة ، فالعدم شيء لا يعرفونه ولا يعترفون به ، وتلك واحدة من دعاواهم العريضة أمام كل شيء . . قطعوا بأنه ليس هناك شيء اسمه العدم ، وهم العاجزون عن معرفة شيء اسمه الوجود .

إنهم ينفون العدم لأن الاعتراف به طريق الاعتراف بالخلق وتلك بلوى يفرون منها ، وهدم صارخ لصرح العلم وافتئات على حقائقه ومسلماته .

ولعلنا نذكر ما نقلناه سلفا عن العبقرى الرياضى المعاصر برتراندرسل وهو يتحدث عن إحدى نتائج النظارية النسبية إذ يقول : « إن المظهر الإجمالى للكون لا يتغير رغم التمدد والاتساع المستمر الذى نشاهده عليه ، فتظهر عناقيد جديدة لتملأ الفجوات ويفترض مبدئيا أنها من الإيدروجين الذى يتحول إلى نجوم ومجرات . . وتسمى تلك الظاهرة أحيانا (الخلق المستمر) بيد أن هذه التسمية تحمل نغمات ميتافيزيقية والأفضل ألا نستخدمها ، ويبدو أنها تناقض قوانين بقاء الطاقة التى تؤلف شطراً من نظرية أينشتين » .

فالرجل يتحاشى أن يسمى الشيء باسمه ، أى بالخلق المستمر ، لئلا يقع فى نغمة الميتافيزيقية وهى كفر فى لغة الطبيعيين . وأهون من ذلك عليه أن يسمى الأشياء بغير أسمائها !

ويلاحظ — ويا للعجب — أن نظرية بقاء الطاقة أو القوة لا تزال بعيداً عن الإثبات العلمى وما برحت سبحات من الخيال الفضفاض ورغم ذلك يحافظون عليها وكأنها حقيقة واقعة .

فإذا تركنا راسل وأينشتين التقينا برجل آخر ملأ الدنيا ضجيجا وإلحاداً واعتبره كثير من الناس خلاصة للفكر الأوربى المعاصر ، ذلك هو فيلسوف الألمان (نيتشه) ونسمع لهذا الرجل وهو يحدثنا عن نظريته التى يطلق عليها (العود الأبدى) فنجده يرفض فكرة الأبدية من الوجود دون عود أو تكرار للصورة أو المراحل التى يمر بها الكون فى زمن ما ، ويمكن تلخيص فكرته فى أن الوجود قوة تتشكل على صورة ما ، وهذه القوة ثابتة لا تتزايد وإنما تنتهى إلى غايتها ثم تعود إلى نفس الصورة وبنفس المراحل ، بادئة من بدايتها ، وهكذا توجد وتمضى على مدى الأبدية وفوق مدار من مداراته وأفلاكه ، التى لا تقف أبدا .

ويطول بنا القول إذا ذهبنا مع الرجل فى شطحاته إلى أبعادها وإنما يهمنا فقط أن نشير إلى رفضه لتزايد القوة فى الكون لأن ذلك يستدعى الاعتراف بالخلق والخالق وهى الشيء الذى لا يطيقه أبدا والذى وقف له كل حياته ليعلن الحرب عليه ويقضى على خرافته !

والرجل فى سبيل ذلك يهدم مبدأه الأساسى فى فلسفته ، ذلك المبدأ الذى يرفض الآلية فى الكون ويرفض العلتية والسببية ويرى أن الوجود كأنه ضرورى يمشى بلا هدف وبلا تخطيط وبلا معنى ، حتى أطلق مؤرخو الفلسفة عليه (فيلسوف اللامعقولية) لكثرة ما يهاجم المعقولات وينفى المعانى والقيم التى تعارف الناس عليها منذ كانت لهم عقول .

ولكن ذلك التناقض يهون عليه فى جانب إنكاره لوجود الخالق الذى لو اعترف بالسببية والعلية لاعترف بوجوده بحسبانه علة العلل .

وإلى هنا ، وبعد ذلك لانجد الرجل قد أتى بجديد غير بلورة لأقوال قديمة حام حولها فلاسفة الإغريق أمثال انكسيمندر الذى يقول بتعدد العوالم وبالفناء

الكونى المتتابع ، ثم رقصات على أنغام غنى بها هرقليطس وأنبادوقليس وعدد هائل من أتباع فيثاغورس .

كل ماهنا لك أن نيتشه وجماعة من أمثاله لا يريدون التسليم بالتغير الكونى المتواصل لأن ذلك يطوح بهم إلى الهاوية التى يحاذرون من الوقوع فيها وهى نهائية الآماد الزمانية للكون ،وهو ما يضطرهم - تبعاً لذلك - إلى التسليم ببدايته أى بالخلق من عدم .

الميتافيزيقا، أو ما بعد الطبيعة ، هو القول الذى يتجنب المشتغلون بالعلوم الطبيعية أن يلتقوا به فى ميدان ، ولكن هل يقبل من أحدهم أن يبتعد عن استعمال هذه اللغة عندما لا يكون هناك بد من ذلك ؟

بماذا نسمى ذلك الخلق المتجدد الذى لا يستطيع العلم أن يحدد غايته ويدرك نهايته إذا كان الفرض أن الطاقة الكونية — حسب قوانين الطبيعة — لا بد أن تقف عند جهد معين ؟

بماذا نسمى ذلك الإقبال المتواصل لذرات الأيدروجين وهى تتوافد إلى عالمنا من المجهول . إذا كان المفروض أن الكون ثابت الكمّ والقوة فلا يفقد شيئاً من داخله ولا يأتيه شيء من خارجه ؟

إن تسمية الأشياء بأسمائها تصيب القوم بدوار لا ندرى له سببا . متى قذفت بهم تلك التسمية إلى أرض الإيمان . ولكن أين المفر من ذلك !

إن الفرار من الحقيقة ليس إلا جريا على مدار ، وسعيا على حلقة مفرغة لابد أن يعود بصاحبه إلى حيث بدأ .

لقد كدنا أن نسمى تهربهم هذا بمنطق النعام ، لولا أن العلم أثبت أن النعام لا يدفن رأسه فى الرمال ليتجنب رؤية العدو ولكنه يفعل هذا ليسمع وقع أقدامه من بعيد .

إنهم يلجمون عندما نسألهم عن حقيقة الذرة وما كشفت عنه فى عهدها الأخير .

إنهم لا ينطقون عندما نسألهم عن حقيقة الضوء والإشعاع التى تكشفت عنه تجارب المادة إلا بقولهم أنها أقرب الأشياء إلى المطلق ، ذلك إذا أراد أحدهم أن يلبس مسوح الفلاسفة وأرباب البيان .

والمادة بعد ذلك — فى نظرهم — موجودة وخالدة لاتفنى لأنه لاشىء هناك اسمه الفناء والعدم .

والحياة موجودة لكنها تفنى لأن هناك شيئاً اسمه الفناء والعدم !

منطق جميل . . . لولا أنه لامنطق فيه !

ولكن قد يطامن أحدهم من كبريائه ويسأل : ما هو العدم ؟

ونجيب هذا المتواضع بأنه يستطيع أن يعرف الفناء والعدم إذا استطاع يوما أن يعرف حقيقة الكون والوجود .

ولكنه لن يعرف الوجود لأنه سر غامض ، ولن يعرف العدم لأنه سر غامض أيضاً ، وإنما هناك عقل ضخم بلا حدود وراء إدراكنا جميعاً هو الذى يعرف سر هذا وذاك .

وإذا كان الوجود شيئاً نلمسه ونراه فنستطيع أن نصفه ، فإن العدم شىء آخر لا نستطيع أن نصفه لأننا لا نلمسه ولا نراه .

فماذا أنت واجد ، إذا بحثت عن قبعة سوداء فى حجرة مظلمة لا توجد بها قبعه ؟ !

وبعد ذلك . فإن الإدراك إنما يصدر عن التصور ، والتشبيهات ليست إلا وسيلة تضع المجهول فى نطاق التصور من عقولنا ، فإذا لم يكن التشبيه بشىء رأيناه قبلا ، فلن يكون هناك تصور فى العقول .

ومن أجل ذلك كان الروح أمرا مستحيلا إدراكه أو تصوره لأنه من عالم لم يقع شيء من موجوداته تحت تجاربنا حتى نحسه ونفهم معناه .

ومن هنا أيضاً يقول الأثر الإسلامى، وهو يومىء إلى موضع الصالحين فى العالم الآخر : فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

كما يقطع القرآن كل أمل فى وصف ذات الله فيقول عنه : ليس كمثله شيء

إذن هناك عدم، لأن هناك وجودا ، ومن هذا العدم جئنا وخلقنا . أما ماهو العدم فشيء تتصوره عقولنا إذا أمكن أن نذكر إحساسنا به قبل أن نأتى إلى هذا الوجود الذى نجهل سره أيضا .

والنور الذى تستطيع به أن تحس الأشياء شيء .
والظلام الذى لاترى من خلاله شيئاً هو شيء أيضاً .
وحقيقة هذا أو ذاك لا نزال نجهلها .

ولكن جهلنا بالشيء لا ينفى وجوده . وإلا ما ظهرت تلك الحقائق العلمية والمخترعات الحديثة التى كان يجهلها القدماء .

***

لماذا جئنا ؟

ما هى الغاية التى من أجلها أتينا إلى ذلك العالم . مامعنى هذه الإقامة القصيرة التى تتمثل فى حياتنا الدنيا . والتى نختفى بعدها على متن سفر طويل ما وراءه من إياب ؟

هل نفسرها بالحديث القدسى القائل : كنت كنزا مخفيا فخلقت الخلق ليعرفونى ؟
أو بقول هجل : إن العقل المطلق حقق بهذه الكائنات نفسه وأعلن عنها ؟
أم نفسرها بأن وجودنا واجب الوجود بغيره كما يقول بعض الفلاسفة ؟
أم نفسرها بأن الله هو المحرك الأول كما يقول أرسطو وأنه حرك كونا كان موجودا قبل ذلك فتحرك من جمود واندفع إلى محركه شوقا إليه ؟

ومهما يكن من تفسير لعلة هذا الوجود وأسبابه فمن القضايا المسلمة أن الكائن لابد أن يكون .

وستبقى علة الوجود شيئا يهلك فى سبيله العقل البشرى سعيا . ولن يصل إلى معرفتها حتى يعرف سر الوجود فى ذاته .
وإذا كانت لدى العلم قدرة على الوصول إلى هذه العلة فليتفضل فنحن لا نسد الطريق عليه .

أما عجزه عن ذلك رغم دعاواه العريضة فدليل على قماءته وصفعة قوية لغرور الذين طالما تطاولوا على حرم لا تسمع فيه إلا كلمة الدين .
فماذا يريد الدين أن يقوله ؟

* * *

أخلقنا لعبادة الله ؟

أخلقنا حياة مؤقتة لنصنع مكاننا فى حياة باقية ننتقل بعد ذلك إليها ؟

أخلقنا لنتزود بالعلم والمعرفة من تجاربنا المادية التى نمارسها فى ذلك العالم؟ سنرى ...

أما العبادة.. فنداءات كثيرة تنادى بها ، ومنها النداء القرآنى :

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون .

ولكن هناك تأويلا يقول : إن (اللام) هنا لم تدخل على الفعل المضارع لتكون لام التعليل . ولكنها تعطى معانى الصيرورة والعاقبة . والمعنى أننا خلقنا على صورة مهيأة ومؤهلة لأداء العبادة وليس من أجل العبادة . ويضيف المفسرون أن هذه اللام تشبه زميلتها فى النص القرآنى : (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) ومن الواضح أنهم لم يلتقطوا موسى قاصدين أن يحدث لهم منه ما حدث . ومن ذلك أيضاً : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة) وبديهى أنهم لا يريدون ذلك وإنما هو ترتيب على كفرهم . ولهذا حديث يطول .

إذن : فالعبادة — على هذا الرأى — ليست قصدا ولم نخلق لها .

إذن .. ماذا ؟

هل خلقنا لنصنع حياتنا الباقية من خلال هذه الحياة المؤقتة ؟

كثير من الدلائل تشير إلى ذلك .

فمن يريد أن يحصد لابد أن يزرع . والحياة المثالية هى التى يصنعها لنفسه الإنسان ، وليست حياة التواكل والتوارث . فقيمة المرء ما يحسنه ، والمرء حيث يضع نفسه .

والعمل هنا يشمل كل ألوانه وأشكاله . فهو عبادة . وهو تطهير النفس وتنقية الضمير . وهو خدمة المجتمع . والتراحم والاستقامة والجهد من أجل البناء والخير العام. وكذلك التعلم والتعليم والبر الاجتماعى وكل ما يحمل معنى الاستخلاف فى الأرض (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) .

ثم طفرة من التطور والتحول المظهرى ينتقل بها الإنسان إلى منطقة أخرى من هذا الوجود حيث يجد ما أعد لنفسه وما صنعه لمستقبله . فلا يلومن إلا نفسه إذا لم يجد مكانا طيبا . أما إذا وجده فليس لأحد عليه من فضل وإنما هو الذى صنع نفسه وأعد مكانه . وهذا منتهى الكرامة لبنى الإنسان .

ولعل هذا هو التفسير الدينى والمنطقى لقصر الحياة الدنيا وامتلائها بالمتاعب واقترانها بالكفاح .. لقد خلقنا الإنسان فى كبد .

والفلاسفة يقولون أن معركة الكفاح التى تدور رحاها فى تلك الحياة الدنيا إنما تدل على أن هناك موعدا لا بد أن يأتى ليصفى فيه الحساب .

ذلك لأن هذا الكفاح لا بد أن تقع فيه ألوان من المظالم ولا بد أن يحدث فيه سلب وحرمان بسبب تسلط الأقوياء واستبداد الطغاة ، وتلك المظالم وهذا الحرمان من مال أو صحة أو جمال لا بد أن يكون وراءه تعويض أعدته تلك الحكمة المسيطرة على هذا الكون .

ذلك لأننا نلاحظ على هذه القوة الخالقة أنها تتسم بالكمال والعدل ، فتهب كل شىء حظا من لوازم بقائه وتعده بما يليق بخلقه ، وبالدور الذى يؤديه على مسرح هذه الحياة . وليس يليق بهذه العدالة ولا بكمال تلك القوة الخالقة أن تبقى تلك المظالم من غير قصاص . فلا بد أن يذهب العدل إلى غايته فتكون هناك حياة أخرى يصفى عندها الحساب وتختفى عندها كل صور الظلم والحرمان .

والعقل يرفض أن يكون القصد والغاية ماثلا فى كل أجزاء الموجودات ثم يختفى هذا القصد من خلق الكون فى مجموعه وهو أولى بذلك من أجزائه وأولى بأن يكون لمعنى يليق بإعجازه ، يكمن هذا المعنى فى قصة الإبداع والتطور الذى قطع به الكون ملايين الملايين من الأحقاب .

ونأتى إلى الرأى الذى يقول أننا خلقنا لنتعلم

فماذا نجد عنده ؟

سنجد أن أظهر مظاهر الحياة هو تساؤل الإنسان عما حوله . غريزة بدأت معه وتنتهي معه . ولا يكاد عقله يهدأ عن نشاطه وتطلعاته حتى ساعة النوم .

الطفل يسأل عما يراه ويلمسه ويحطم الشيء ليراه سليما ومحطما وفي كل أحواله وأشكاله ، والآباء والأمهات يعرفون مبلغ تعطش الأبناء لكل معرفة . ونحن نعرف كم يلذ لنا أن نعرف حتى الذين لم يتح لهم أن يعرفوا ، يدعون العلم رغم ذلك ، حتى تردد القول الذي يقول : كفى العلم شرفا أن يدعيه من ليس فيه .

تراث البشر كله علم أو محاولة ، حتى ليبدو واضحا أن هذا وحده رسالة الحياة أو مهمة البشر .

عاشت الفلسفة زمنا طويلا وهي تحوي العلوم في أحشائها . وجاء زمن فتخلت عنها وانفردت بما أسموه : الحق والخير والجمال . ثم أخذ الجدل ينال من وضوح هذه الأفكار الثلاثة حتى أوشكت أن تتوارى من محيط الفلسفة وتصبح أفكارا موزعة على التشريع والأخلاق والفن . ولكن الشيء الذي لم تتخلص منه الفلسفة وكاد يصبح موضوعها الأوحد هو نظرية المعرفة التي شغلت عصر النهضة وما بعده كما ضربت أعراقها في فلسفة القدماء .. نراها عند أرسطو ونجدها عند أفلاطون تحتل مكان السنام من فلسفته وتخلع على نفسها اسم نظرية المثل التي كانت نتيجتها العظمى : العلم تذكر والجهل نسيان .

على أن النظرية الأفلاطونية تكاد تنفرد في اتجاهها . فلم يذهب إليها حتى صغار الأفلاطونيين . وإن كانت تترقرق في كتابات بعض الباحثين في نظرية المعرفة ، ولكنها لا تعدو أن تكون ظلالا أو ركنا صغيرا في محاولاتهم لتصويرها والبحث عن أركانها ووسائلها أو أدواتها في الإنسان .

كادت نظرية المعرفة أن تصبح موضوع الفلسفة المعاصرة لأنها في حقيقتها قضية الوجود بأسره . سواء في طرق تحصيلها وفي ماهيتها أو مدى أهميتها ، بل إنها الوجود ذاته عند ديكارت الذي يبدأ فلسفته بالقضية المشهورة : أنا أفكر فأنا موجود .

ولكن يذهب بعضهم إلى أن للمعرفة جانبا لايبحث عنه الإنسان لأنه فطرى فى نفسه وشىء كامن فى عقله ، ولكن هذا الجانب — على ضآلته — لم يسلم من مهاجمة عنيفة تحطم تحتها أوكاد . وسادت الفكرة التى يعتنقها جمهور الفلاسفة ويحمل لواءها مفكرو الإنجليز . وهى أن المعارف مكتسبة والحواس هى نوافذ المعرفة ، واشتهر القول بأنه ليس فى العقل شىء لم يكن قبل ذلك فى الحواس . واشتهر كذلك أن العقول مواهب والعلوم مكاسب .

ونظرة فى النصوص الإسلامية تكشف لنا عن رأى الإسلام فى هذه المشكلة ، فتقف بنا على الجانب الحسى الذى يعتنقه جمهور الفلاسفة .

فمن آيات الكتاب الخالد : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) .

العلم والتعلم قضية خالدة وذات خطر يضعها فى أبرز المعالم من حياة الإنسان .

يهتم بها الدين ويضعها فى حسابه ، بل يجعلها النشيد الأول الذى مزق الصمت فى غار حراء . ثم جعلها الحداء الذى ترنم به فى أولى الآيات من كتاب المسلمين الأكبر فيقول : (الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

ثم إنه يصوغ من ذكر العلم والعلماء حبات مضيئة ينظمها على طول آياته وفى نداءاته للعقل البشرى أن يفيق ، وأن يفكر فيما حوله وأن يعقل مظاهر الوجود الذى قدر له أن يعيش فى ركنه المادى والذى هو أول مراحل الطريق الممتد به على رحلة الوجود .

وهو يضع العلماء فى مقام لايتطلعون إلى مقام فوقه ، إذ يقول : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط .

ويضع أول إنسان عرفه الوجود فى مكان السيادة من الملائكة لأنه تعلم

أكثر منهم . لا لأنه أكثرهم عبادة . بل إنهم عندما جعلوا العبادة غاية الخلق واعترضوا على مجيء مخلوق ربما أفسد فى الأرض ، أسكتهم الخالق بقوله : (إنى أعلم ما لا تعلمون) .

ذلك أن العلم هو معنى الوجود الضخم ، به يعمر ويبقى وبه تتسنى الخلافة فى الأرض ، وبه تكون معرفة الإله وخشية الإله : إنما يخشى الله من عباده العلماء .

ولقد يفهم البعض أن العلم الذى ينادى به الإسلام هو علم الدين وحده .

وهذا فهم أقرب إلى الوهم ، فالإسلام يرسم لأتباعه منطلقا لا يقف بهم عند غاية فى السماء ولا فى الأرض : قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ... وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون .

ولا نريد أن نخوض طويلا فى ذلك الباب فقد سبق لنا أن طرقناه فى مناسبات عدة من هذا الكتاب . ويكفى أن نسوق مثلا ما قلناه عند الحديث عن أصل الدين (.. إنه دعوة قوية تشد أبصارنا إلى الكون المحيط بنا وتدعونا إلى قراءة ما كتبته عليه يد الإله ، وتنادى العقل فى كل موطن وتشيد بالفكر الإنسانى فتجعله عبادة وصلاة إلى جانب صلوات القلب والجوارح الأخرى : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، وكتاب المسلمين الأكبر يبدأ أول ما يبدأ بكلمة اقرأ وبقوله : (علم الإنسان ما لم يعلم) .

وفى الملحمة الإلهية التى جاءت إلى الوجود بأول إنسان ارتفع هذا الإنسان إلى قمة الوجود بعلمه لأنه تعلم الأسماء كلها فتصور مسمياتها وفهم العالم الذى تقلد خلافته عن جدارة ، فكانت خير تحية له سجود الملائكة بين يديه .

كذلك سوى بين الناس فى حق الحياة ، لكنه رفع العلماء إلى مكانة كريمة

فقال : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . . . شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم . . . ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا) .

وليس للعلم حدود فى نظر الإسلام : (وقل رب زدنى علما ... طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ... اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد) بل وفضله على العبادة : (قليل العلم خير من كثير العبادة .. الناس عالم أو متعلم .. إلخ) وأوعد من يعطلون حواسهم وعقولهم ونزل بهم الحضيض فقال : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) ويطول بنا المقام إذا استقصينا إشادة الإسلام بالعلم والعلماء وإكباره للفكر والمفكرين .

وقد يرتفع صوت فيقول : إن المقصود بكل هذا هو علم الدين فقط ، وليست الثقافة الكونية ولا العلم فى مدلوله الواسع ونقول لهؤلاء إن القرآن يعنى العلم بمدلوله الواسع، فهو يشيد بالحكمة وهى كلمة جامعة. وعنده قضاء داود وسليمان علم : ففهمناها سليمان وكلا آتيناه حكما وعلما . وتأويل الأحلام وإدارة الزراعة والاقتصاد المصرى علم أوتيه يوسف ابن يعقوب : ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ، وكل نداءات القرآن تهيب بالعقل أن يفكر فى خلق السموات والأرض والجبال والسحب والأمطار والنباتات وعجائب الحيوان كالإبل وسائر الأنعام والدواب وتصريف الرياح وخصائص اللواقح منها ، كذلك البحار والأنهار واختلاف المياه من عذب وملح أجاج ، والفلك المواخر ، والنباتات المختلفة الأكل وهى فى تربة واحدة وتسقى بماء واحد ، وغير ذلك من إشارات إلى الطب والتاريخ وسنن الحياة ... إلخ إلخ .

وكل هذا يسوقه فى لهجة توجيهية تحث على التفكير وتأخذ بمجامع القلوب فتطوح بأصحابها إلى مواطن الدرس والتأمل ، وبحث العلل والمعلولات فتحشد أمام العقل البشرى مجالات واسعة هى كل علوم الكون والحياة .

إلى آخر ما كتبناه هناك .

وتكاد النصوص الإسلامية أن تجعل هذه المسألة شغلها ، بل إن الرسالة الإسلامية فى ذاتها تعليم وتوجيه، وتزيد فتجعل العقل والتعقل قوامها وروحها. فيقول الأثر النبوى : الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له . . . لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تنظروا ماذا عقده عقله .. إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرفع العباد غدا فى الدرجات الزلفى عند ربهم على قدر عقولهم ، ثم ينتهى إلى أن أفضل العبادة طلب العلم ... وإن نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة .. إلخ

ثم يقدم لنا لوحة صادقة عن مستقبل الإنسان فيشير إلى أنه طموح إلى المعرفة وسوف ينتهى به ذلك الطموح إلى قدر هائل من العلم فتخضع له نواميس الطبيعة وقواها ، وعندئذ سيأخذه طائف من الغرور المتبجح فيلاعب بهذه القوى لعبة يكون فيها القضاء المبرم على كل حضاراته ، بل كل حياته ، ويسدل الستار على الفصل الأول من قصة هذا الوجود ليبدأ الفصل الثانى بما يدور عليه من مشاهد القيامة ، فيتحقق بذلك وعد الله .

وعندما نسمع القرآن وهو يقول : حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كان لم تغن بالأمس .

عندما نسمعه وهو يدرج قصة التطور الاجتماعى والعلمى فى حساب الزمن من حياتنا على هذه الأرض ، لا نملك إلا أن ننحنى أمام ذلك القول الضخم الذى هبت علينا رياحه من قلب الصحراء . فنحن نعلم أنه لم يكن بها يوم ذاك شىء يعطى محمدا أية فكرة عن تلك النواميس التى لم تظهر إلا أخيراً ومنذ عصر النهضة، وبعد أن لعبت دورها نظرية التطور واعتنقها رجل مثل نيتشه وصاغ بها — إن حقاً وإن باطلا — فكرة السوبرمان .

وتلك آية على صدق رسالته ، وحجة على أنها مدرسة جامعة ، تمجد العلم فى أشكاله وتحض عليه فى كل ألوانه ، وتصور هذا الوجود على أنه كتاب تنفد فى كتابته بحار الأرض ومن ورائها سبعة أبحر من المداد قبل أن تنفد كلماته وأن رسالة الإنسان فى وجوده الأول ووجوده الثانى إنما هى علم وتهذيب وبناء لكيانه وإعداد لمكانته فى مقام الخلود .

حتى ليقول الأثر النبوى : من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم .

وذلك مما يجعلنا نطيل الوقوف أمام ذلك الرأى ، رأى أننا وجدنا لنتعلم ثم نقارن بينه وبين ما يقال أننا خلقنا لنتعبد ، ويطول وقوفنا بعد ماعرفنا تأويل المفسرين لمعنى (اللام) فى الآية : ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون .

ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك : هل اهتم الدين بالعبادة قدر اهتمامه بالعلم ؟

هل احتفل بجماعة العباد ووضعهم حيث وضع العلماء عندما قال فى شأنهم : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ؟

وهنا يقفز أمامنا قول للفيلسوف المسلم على بن سينا : إن الشرائع تخاطب العامة باللغة التى يفهمونها وبالتصورات التى يمكن أن تصل إليها عقولهم ، أما الفلاسفة فإن لهم فهما خاصا فيما جاءت به الشرائع ، وإن لهم أن يحملوا نصوصها المضامين التى يرتضيها العقل الفلسفى ويطمئن إليها .

ثم نسأل مرة أخرى : ماذا يعنى الرئيس بذلك ؟

هل يريد أن يقول : أن شعائر العبادة ووسائلها المعروفة إنما وضعت لجماعة لاترقى بهم هممهم إلى مقام العلماء والفلاسفة ، وأن الأخيرين لهم صلاتهم وعبادتهم التى يمارسونها وجدانا وفكرا أمام محراب ذلك الكون الهائل الذى شيدته يد الإله، تلك الصلاة التى تصل بين ضمائرهم وبين أعماق الكون فيقتربون

من عالم الحقيقة ويمتلئون بشعور غامض من الجلال والرهبة ويصبحون مصداقا لقول القرآن : إنما يخشى الله من عباده العلماء ؟

نتساءل عن ذلك ، وربما أجبنا بشيء ، وأجاب غيرنا بشيء آخر . ولكننا نجدنا ملزمين بأن ننصت إلى حديث يقول : يبعث الله العالم والعابد يوم القيامة فيقال للعابد ادخل الجنة ، وللعالم اشفع للناس كما أحسنت إليهم .

كما نجد لزاما علينا أن نقف طويلا أمام الآية التى تقول فى وصف المؤمنين أنهم : (الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك) !

* * *

إلى أين نذهب ؟

سؤال خالد . .

والإجابة عليه خالدة أيضاً ، وإن كانت قد تعددت ألوانا .

فهناك . . وتحت سماء الشرق عاشت فكرة الراحة الكبرى التي سنجدها في عالم ما وراء المنظور الذى أطلقوا عليه (النرفانا) ، أما الذين تعلقوا بالأرض وحرموا نعمة الصفاء وكتب عليهم الشقاء ، فلهم عودة إلى العالم الأرضى يشقون به ويعودون إليه مراراً وتكراراً حتى يتم لهم التطهير من ذنوبهم التى اقترفوها وبعدئذ يحظون بالصعود إلى عالم النرفانا حيث يسعدون براحة الأبد .

وتتمثل عندهم العودة فى فكرة التناسخ التى تتلخص فى أن أرواح الموتى تنتقل من أجسادهم إلى أجساد الحيوانات والتعساء من الأحياء فتلقى من شقاء الدنيا ما يطهرها وتظل كذلك متنقلة من جسد لآخر حتى يتم تطهيرها وتصبح جديرة بألا تعود إلى الحياة .

ونترك بلاد الشمس المشرقة بكل ما عليها من مذاهب تدور حول ذلك المعنى لنلتقى بقدماء المصريين فوق أرض الوادى وقد برزت عندهم فكرة الخلود والبعث والحساب .

آلهة يقيمون على طرف الوادى وفى (حقل الفيضان السعيد) ليحاسبوا العصاة والظالمين ، ما لم يستطع أولئك المذنبون أن يعتذروا عن سيئاتهم أو يغالطوا الآلهة بشىء من اللباقة والمحاورة التى تضمنتها كتب الموتى وتوصيات الكهان .

وعلى كل فقد آمنوا بأن الموت ليس إلا انتقالا إلى العالم الثانى الذى كان يتمثل عندهم فى مجمع الأرواح وهو مكان مقدس عند الجبل الغربى حيث نصبوا أبا الهول وشادوا الأهرام .

وفى أثينا لم تكن عندهم فكرة مجلوة تأخذ بمبدأ الإعتقاد العام ، إذ لعبت الفلسفة دورها الذى يتسم بالحوار المعنّى والخلاف الطويل .

وهبت رياح على هذه الفلسفة فطوحت ببعضها إلى شطحات تصوفية عند فيثاغورس ومعلمى الرواق ، ولم تكن فى مجموعها تعنى كثيرا بفكرة المصير الإنسانى ، عنايتها بفكرة مصير العالم فى ذاته ، فدارت حول أصل المادة أزلا وخلقا، ثم بالتالى حول مصيرها خلوداً أو فناء ، وليس هنا موضع ذلك الخلاف الطويل .

ومن خلال هذا الضباب القديم تشد أبصارنا شخصية سقراط ، ذلك الرجل الذى وقف بإيمانه أمام قضاته وكأنه يرى العالم الثانى بعينيه ، عالم الفضيلة والخلود الأبدى ، فنراه يشرب السم راضيا ومصمما عليه ويندفع فى فرحة وثقة إلى ذلك العالم الثانى وهو يترنم بجماله ، تاركا دنيا الناس بكل ما تحمل من قبح ورذيلة ونفاق .

وجاءت الديانات الكبرى . . وانطوت الديانة الموسوية دون أن تترك أثراً يدل على منهجها فى ذلك السبيل . وبقيت تعاليم ليست فى ذاتها غير إملاءات تحكى لنا تاريخ اليهود وتصور أفكارهم عن إلهٓ محارب لا يخلع عدة الحرب ولا يتخلى عن القتال ليثأر لهم وينصرهم على سائر البشر باعتبارهم وحدهم شعبه المختار .

وجاءت المسيحية تدعو إلى المحبة والصفاء دون أن تهتم بتفاصيل واضحة لفكرة العالم الثانى ، تاركة كل ذلك إلى أن يأتى حينه ويحدث الانتقال إلى أمجاد السموات .

وفى أعماق الشرق القديم عاشت البوذية وهى ترفض فكرة الروح لامنكرة لوجودها وإنما يأسا من الوصول إليها والتثبت منها. ثم مات بوذا وأصبح قديساً يزار ، بل إلها يدان له وهو الذى كان يرفض فكرة الإله .

وعاش العرب وهم يعبدون الطواطم والأسلاف اعتقاداً منهم بأن أرواحهم ما برحت تعيش بينهم وتحوم فوق هاماتهم وصاغوا لذلك التماثيل والأصنام .

ثم جاء الإسلام ورفض فكرة الحلول والتناسخ ، ونطق صراحة بالعالم الثانى وبالخلود بعد الموت وبيوم الدينونة والحساب الذى تصفى لديه المشاكل كلها ويتم تقييم الناس ووضعهم فى مراتبهم من سعادة أو شقاء .

ومن نصوص هذا الدين يستشف المصير الذى يؤول إليه الموتى (فهم أحياء عند ربهم يرزقون) ، عند ما يتحدث عن الشهداء فى سبيل الله ، وهم يعرضون على النار غدواً وعشياً عندما يتحدث عن آل فرعون ، وهم فى قبورهم يسمعون نداء النبى عندما ينادى أهل القليب . . . عتبة بن ربيعة وشيبة وأبا جهل وأمية بن خلف وغيرهم ثم يقول لأصحابه : إنهم أسمع منكم لما أقول .

والطبيعيون — بالطبع — ينكرون ذلك كله ويعتبرونه من أكاذيب التاريخ وترهات القدماء .

ولكننا مع ذلك لانضيق بهم ذرعا ، وإنما نعود بهم إلى صفحات خلت من هذا الكتاب وبالنتيجة المنطقية لكل ما كتبناه عليها ، ونذكرهم بكل ما نقلناه من وقائع ومن ظواهر كونية يسلم بوجودها العلم ثم لايجد مهربا من الإعتراف بأشياء لا يراها ، وإنما يحس بآثارها ، وذلك ليسلم له منطقه وتكتمل أمامه الصورة التى صورها لهذا الكون الذى نعيش فيه .

وهو ما يشير إليه (موريسون) عندما يقول : — إن حقائق فوق إدراكنا تقبع فى الجانب الآخر من هذا الكون المجهول لترسل لنا إشارات خفية بأن أمامنا الكثير الذى يجب أن نتعلمه .

ويقول عنه (هربرت سبنسر) : — إن وراء العالم الطبيعى جانباً يستحيل على الإنسان معرفته .

وذلك تكلمنا عنه كثيراً فلا نعود إليه .

ومهما يكن من خلاف . ومهما يكن من جدل أجوف يغرق القوم أنفسهم فيه ، فإن هناك مفارق لابد أن نلتقى عندها ، فهى معقولات تقوم عليها الشواهد من حولنا وتقوم لها الآيات مما يقع تحت عيوننا وعيون الطبيعيين على السواء .

وقبل أن نترك هذا المقام لا نجد بأساً من أن نسوق إلى القوم كلمة خاطفة يرجعون فى تفسيراتها إلى ما قدمنا من صفحات هذا الكتاب .

أولا : نضع تحت أعينهم ترتيب الكائنات خلقا فى ذاتها وتبادلا لمختلف المنافع فيما بينها على وتيرة تشهد بالغاية والقصد من خلقها ، وليس بالفوضى والاعتباط ، حتى ليقول العلماء ومن بينهم نابغة الفلك الحديث (ج . جينز): إن الكون أشبه بفكرة عظيمة منه بآلة عظيمة .

هذا القصد ، وهذا الفكر الذى يقف من ورائه ، هو ما يدعونا الدين إلى تدبره وإلى الوقوف عنده بكل ما يحمل الإنسان من عقل ووجدان .

وعندئذ سنجد أنفسنا عند حقيقة مسلمة وهى أن الله أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وأننا حقاً لا نجد فى خلق الرحمن من تفاوت كما يعلن القرآن ، وبعدئذ تأتى النتيجة المنطقية لذلك وهى انتفاء الفوضى ثم وضوح الهدف والقصد من خلقنا فى هذه الدنيا ويتجسم ذلك فى شكل تساؤل مهذب يسوقه القرآن فيقول: (أفحسبتم أنا خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ... أيحسب الإنسان أن يترك سدى) .. إنها أنغام تتلاقى من كل أطراف الحياة لتشدو لنا لحنا يصور أهداف تلك الحياة .

ثانياً : فكرة الكمال الإلهى تتراءى لنا عند كل نظرة نلقيها على مظاهر الخلق وحكمة الأشياء ، ومنطقيا لابد للكمال أن يأخذ مداه فلا يترك العالم هكذا دون وقفة تسوى خلالها مشاكل من عمل الإنسان ، أو من عمل الطبيعة وهى تجرى على

سننها التى فطرها الله عليها لا تبالى كم تركت فى طريقها من دمار ، وتلك الوقفة لا تكون إلا بامتداد لحياة الإنسان فى العالم الثانى ، ومجىء يوم يسوى فيه الحساب .

ثالثاً : الحياة جوهر بسيط فهو خالد ، لأن الزوال والتحلل لا يكونان إلا من طبيعة المركب ، أى من طبيعة الجسد وحده .

رابعاً : إذا وقع الفناء للجسد فذلك حتم لطبيعة التغير فيه ، أما الروح وهو قوام الشخصية فلا يتغير مدى حياة الإنسان ، وذلك سر بقاء شخصيتنا بكل سماتها ومعنوياتها طوال عمرنا على هذه الأرض .

خامساً : التطور كما يفهمه أصحابه يقضى بالتحول ، وهو بالذات ما يطرأ على الإنسان عندما يغادر هذا العالم ، وهو ما يحدث فى الذرة مثلا عندما تتحول تحت تجاربنا إلى لون آخر من ألوان الوجود ، فتكون قوة وتكون إشعاعا وشيئاً لا يدرك كنهه وفى ذات الوقت لا ينكر وجوده .

فعندما نخلع ذلك الثوب المادى المركب وهو الجسد ، نصفو إلى جوهرنا الأصيل ، فنكون أثيراً واهتزازاً على مرتبة أسمى ، أى مظهراً آخر من مظاهر الوجود يدعوه العلم بالعنصر البسيط ، وليس هناك أبسط من الروح ، ذلك الكائن الذى نترجمه بلغة العلم إلى عنصر الحياة أو سر الحياة .

وليس ذلك شعراً يقال ، فعـــدد هائل من الإشعاعات لا ندرك كنهه ولا نحس وجوده ، ورغم ذلك يعترف العلم بأنه يملأ الكون ويضرب فى حناياه .

وإذا كانت لنا وقفة هنا فإننا نقف أمام ظاهرة لا تزال تحدث دوياً فى كثير من الأوساط العلمية وهى ظاهرة الإتصال بالأرواح .

لقد وقف الناس منها مواقف شتى ، بين مصدق ومكذب ، وبين متصور لها

على نحو أو آخر ، ولكن هذه الحركة فى ذاتها قد اتسعت نطاقا وأصبحت تستحق النظر والدرس الطويل ، فبينما تفسح بعض الجامعات فصولا لدراستها ، تعلن أوساط أخرى أن هذه الظاهرة ليست إلا امتداداً لخرافة السحر عند القدماء .

أما رجال الدين فلهم موقف مختلف ، فالغالبية منهم على أنها حركة شيطانية وأن ما يزعمه الناس أرواحا ليس إلا نفراً من الجن والشياطين !

ولو أنصف هؤلاء لبحثوا المسألة جديا وتركوا هذه الحذلقة النظرية جانباً ، فقد يكون الأمر غير ما يقولون وقد يكون كما يقولون . وعلى الحالين سوف يقدمون خيراً لطائفة من الناس تنكر كل ما وراء المنظور سواء فى ذلك ما يسمى أرواحا وما يسمى شياطين وحتى ما يسمى الإله .

ولقد زاد من هذه الحركة أنها صرفت إلى محيطها رجالا ذوى خطر وجذبت إلى ساحتها عدداً ضخما من رجال الطبيعة والفلك وأساطين التشريح والطب وذوى المكانة فى علوم الأحياء . . .

وأعود لأصل الحديث الذى بدأته فأقول :

إن هذه الحياة القصيرة التى نعيشها على هذه الأرض لا يعقل أن تكون خاتمة المطاف لتطور طويل تقلبت فيه الأحياء وبلغ به الكون هذه الصورة المذهلة ، فذلك لا يكون إلا عبثاً وخبطاً لا يتمشى مع منطق الكون فى ذاته .

والمعقول أن تكون تلك الحياة المتطورة بداية لرحلة نخلع على أعتابها ذلك الجسد الفانى . نخلعه لأنه متغير يجوز عليه التحلل والفناء ، أما شخصيتنا وذاتنا الشاعرة المدركة فجوهر بسيط لا يتغير وإنما يتحول به الطريق ليستقيم على وجهة أخرى . ثم يمضى فى رحلة الأبد .

ومن العبث أن نتحدث عن أحداث هذه الرحلة كأننا رأيناها . وإنما نترك النصوص الدينية وللمفاهيم الشخصية أن تلعب دورها وأن تدخل على كل شخص من بابه الخاص .

وغموض هذه الحياة الثانية لا يمنع من تصور وجودها ، ذلك لأننا نعترف بوجود حياتنا الدنيا رغم أنها أشد غموضا فى ذاتها لو أردنا فهمها من أعماقها وتحليل أجهزتها ودوافعها الخفية ، بعيداً عما تحدثنا به الجوارح والأحاسيس . فلئن أحسسنا بماديتها عن طريق الحواس التى أتيحت لنا — وكثيراً ما تخدعنا تلك الحواس — فإن الحياة الثانية لن تتطلب منا تلك الحواس ، لأنها عالم من المعانى وضرب من الإدراك العميق لهذا الوجود المطلق . وهذا الإدراك هو الملكة الباقية مع شخصيتنا . بل هو كل قوامها ومعناها ، ولن يقال هنا أن الفكر هو أصداء المخ وانعكاساته فالمخ شيء مادى كسائر الحواس التى نصلح أخطاءها بأفكارنا ونكشف خداعها عندما نرى العصا مكسورة فى الماء والنجم صغيرا فى السماء ، والمخ المادى لا يفعل ذلك ولا يستطيعه ، لأن المادة لا تناقض نفسها ، فهى أداة انعكاس فحسب يصدر عنها الشيء واحدا فإما خطأ وإما صوابا .

ولعل أحلامنا فى منامنا هى خير ما يترجم لنا هذه الحقيقة عندما تكون كل حواسنا معطلة ، ثم لا نتصور أبداً فى وقت أحلامنا أننا نحلم .

بل إن جانبا من نجوم الفكر لا يؤمنون بحقيقة الحياة التى نعيشها على هذه الأرض .

فهذا (بركلى) يقول : — إن المادة لا وجود لها فى الخارج ولا وجود إلا للروح والعقل ، وآراؤهما لا تقبل التغير ، أما ما تخلعه الحواس وتصوره لنا فوهم واهم لا ثبات له .

وولیم جیمس یقول : — إن الطبیعة تنطق بالروح .وما العالم المادی سوی تعبیر رمزی عن عالم روحی حقیقی .

بل هناك من یعكس القضیة بین الحیاتین فیجعل حیاتنا الدنیا هی الحلم والوهم، عكس الحیاة الأخری.. وهذا إمام الفلسفة الحدیثة(رینیه دیكارت) یقول : قضایا الحواس قابلة للشك ، فبمثل هذه القوة نری الأحلام ، فمن یضمن لنا أن هذه هی حال حیاتنا ؟

* * *

تلك مقالات لجماعة یحلو للطبیعیین أن یسمعوا لهم . ومن أجل ذلك عرضناها علیهم ، ولیضعوا بعد ذلك أصابعهم فی آذانهم ، فإننا سنردد الأثر الإسلامی الذی یقول : الناس نیام فإذا ماتوا انتبهوا .

الدين في موقف التحدّى

الدين يتحدى العلم

فبعد أن يفسر لنا حكمة الوجود ، وبعد أن يرسل أضواءه الكاشفة على مستقبلنا ، يتحدى العلم أن يقدم لنا تفسيراً وفهما آخر يستوى بنا على الطريق .

ولكن العلم لا يملك طاقة للتحدى ، إنه مشغول بظواهر الأشياء ، ليس له بما وراء ظواهرها يدان .

بل إنه حتى أمام هذه الظواهر لا يملك أن يقول فى أمرها كلمة فاصلة، وإن تاريخه المتحول ونظرياته المتضاربة والتى قام بعضها على أنقاض بعض لهى بعض الشهود على ما نقول .

ومن ذلك انطلقت كلمة الفيلسوف المعاصر برتراند راسل : العلم لا يهدف إلى إرساء قواعد ثابتة أو عقائد أبدية ، ولكن إلى الإقتراب من الحقيقة بتقريبات متتابعة دون أن يدعى فى أية مرحلة أنه قد وصل إلى الدقة النهائية الكاملة . ويمضى هذا الفيلسوف العالم فى ضرب أمثلة على ذلك فيتناول القوة الموجودة بين كرتين من البليارد ويقول : إنها تبدو مفهومة لنا عندما نعرف مايعنيه الاصطدام بين شخص وآخر ، أما القوة الموجودة بين الأرض والشمس على بعد ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال فأمرها غامض ، وإن الفعل على البعد فى نظرية نيوتن نفسه يبدو مستحيلا لديه مع أنه واضع نظرية الجاذبية ، ولكنه مضطر إلى وضعها ليفسر نظاما ، تاركا لمستقبل العلم أن يكشف نظاما آليا لايزال بعيدا كل البعد عن مداركنا ، ولقد كان الأمل معقودا على نظرية النسبية التى نادى بها أينشتين ، ولكنها لم تفسر لنا كل ظواهر الكون ورغم ذلك فالعلماء مرغمون على تقبلها حتى يبين فى الأفق ما هو خير منها .

وحتى قانون العلة والمعلول الذى يتراءى لجمهرة العلماء أنه أكثر تماسكا من غيره يتعرض لهزات عنيفة من التشكك والظنون ، وهذا كلام لا يقوله أبو حامد

الغزالى ولا حفنة من فلاسفة المسلمين فحسب ، وإنما يؤمن به علماء وفلاسفة محدثون، ويصوره برتراند راسل فى قوله : إن العلة والمعلول اختزال مريح للقوة وكلاهما اختزال مريح لا يمثل شيئاً حقيقياً فى العالم الفيزيائى .

ومثل هذا القول يرفضه الطبيعيون عندما يقوله مشتغل باللاهوت أو فيلسوف مؤمن، ولكنهم يخرسون عندما ينطق به واحد ممن يجولون فى حلبتهم أو يدينون بمذهبهم .

وتلك ظاهرة نأسف لها رغم أنها مصداق لما سبق أن ذهبنا إليه من أن العداوة لم تقم أساسا بين الدين والعلم وإنما قامت بين رجال هذا ورجال ذاك . وهو قول لا نزعمه ولكن أقمنا الدليل عليه ولا بأس من أن نقدم أحد الأعلام المشتغلين بعلم الطبيعة الحديث وهو (أوليفرلودج) رئيس مجمع تقدم العلوم البريطانى فى خطبة له عام ١٩١٣ : « وعندى أنه لا يحق للعلم أن ينفى شيئاً نفيا مطلقا ، فإن حاول أخطأ . فليس ذلك شأنه .. إنما شأنه الإثبات ، وعندى شىء آخر أقوله وهو أن أساليب البحث الطبيعى ليست كل الأساليب التى يمكن الوصول بها إلى الحقائق ولو كانت هى أساليبنا المعروفة التى نعتمد عليها .. ولا يزال كثيرون من رجال العلم معادين للعلوم الدينية بسبب تطرف أصحابها الذى عانى منه أسلافنا الشىء الكثير واضطروا أن يجاهدوا ليتاح لهم البحث عن الحقائق حسب الطريقة التى أرادوها . وكان ذلك الجهاد أمرا ضروريا ولكن بقيت منه فى النفوس آثار سيئة أحدها هذه الكراهية بل هذه العداوة للأمور الروحية .. فلا نرتكبن خطأ القدماء فى معاداة الأنبياء وذوى القرائح الوقادة حاسبين أن سبيلنا هى السبيل الوحيدة لاستجلاء غوامض الكون . وكل ما سواها جهل وضلال ، فإن الكون أوسع جداً مما نظن ولا تكشف خباياه كلها بطريقة واحدة » .

ذلك موقف العلم من ألغاز الطبيعة ومعميات الوجود ، وهذا موقف

رجاله من الدين يفتضح أمره بالشواهد المتعددة وبالكلمات الجريئة المتحررة يطلقها المعدودون من رجاله فى المواقف والمناسبات . فهل نجد بعد ذلك فى أنفسنا رهبة المأخوذين ببريق الألقاب والمجد العلمى الذى يتشح به هراطقة العلوم المعاصرة مستغلين نشوتنا وبهرنا بآثارهم وشهرتهم فى إشادة هيكل هذه المدنية الآلية والصناعية ؟

يجب ألا نكون كذلك ، وإلا ... نكون قد قضينا على أنفسنا بموقف البلهاء الذين ذهبوا ضحية للكهانة القديمة ومضوا طعمة سائغة للعبابيل الضخمة من رجالها وسدنتها ، أولئك الذين عاشوا على حسابها زمنا مضى بخيره وشره ونرجو له ألا يعود .

ولست بحاجة إلى بيان أننا لا ندعو إلى رفض العلم والتنكر لنتائجه لأن أهله قد ظهر بينهم من يعادى الأديان . فكم عادى الأديان جهلة وأنصاف متعلمين بأكثر مما فعل أولئك العلماء . وما زلنا نعانى من سماجتهم إلى اليوم .

ليس هناك فى هذا الوجود شىء يمكن أن يرضى الناس جميعاً دون أن يسخط أحدا عليه ، وليس هناك شىء يمكن أن يتصف بالخير كله ، أو بالشر كله . ولكن الأمر نسبى تختلف حوله الأنظار والأمزجة كما تختلف فى تعبيرها عن أحاسيسها تجاه شىء من الأشياء .

هذان رجلان يمسك كل منهما بكأس ملئت إلى نصفها فيقول أولهما لقد أعطانى ربى نصف كأس ، ويقول الآخر لقد أخذ الله منى نصف كأس .

وتلك امرأة تذهب إلى أحد حكماء اليونان لتشكو إليه أن السلطة العامة تريد منها ولدها الوحيد إلى خدمتها .. فتقول لهذا الحكيم : أنا غير راضية عن ذلك . فإن ولدى إما أن يقول الحق فيكرهه الناس أو لا يقول الحق فتكرهه الآلهة . فهو على الحالين مكروه .

فلم يزد الحكيم على أن قال لها : أرسليه يا سيدتى ولا تحزنى .. فإنه إما أن يقول الحق فتحبه الآلهة أو لا يقول الحق فيحبه الناس. فهو على الحالين محبوب .

وهكذا تلعب العواطف دورها وكذلك الأهواء .

وخير الناس من يتزود بالعلم ليكتمل عقلا . وبالدين ليشف نفسا ويكبر قلبا ، وبهما معاً ليكون إنسانا خليقا بمكانة الإنسان فى هذا الوجود .

* * *

الدين يتحدى العقل

عندما يتوغل العقل فى كل شىء دون رجعة ودون أن يسمع نداء القلب بالعودة إلى منطق الأشياء وأحاسيس الوجدان . هذا العقل لا بد أن يفقد نفسه ، ولسنا نقول ذلك بلغة اللاهوت ولا بصوت الواعظين على المنابر ، ولكنه لقاء مع منطق العقل نفسه ومع أشد المتعصبين من أنصاره .

فتاريخ الفلسفة مشهد طويل لأشد أهوال الصراع الذى مارسه فكر الإنسان . كما أن تاريخ العلم مشهد آخر تسخر فيه النظريات العلمية بعضها من بعض حتى فى أوضح المظاهر الطبيعية وأقربها إلى أحاسيس الإنسان .

ولسنا بحاجة إلى العودة لما قلناه فى هذا الصدد ، وهو كثير .. حتى قام نفر يشكون فى نتائج التجربة وأحكام الحواس وينادون بسيطرة العقل ، ونهض آخرون يهاجمون العقل ويصفقون للتجربة ، ونادت فرقة ثالثة بالشك فيهما معاً وبإنكار وجود أية حقيقة ثابتة ، حتى ليقول نيتشه : توجد عيون من جميع الأنواع ، وحقائق من جميع الأنواع ، فلا توجد حقيقة البتة . ومن قبله نادى السوفسطائيون بالقول ذاته قبل سقراط وبعد سقراط .

إذن . . . فما موقفنا من هذا كله ؟

موقفنا أن نسمع إلى نداء كل من العقل والقلب ، وألا نترك لأيهما أن يسيطر على الآخر ، فالعقل قوة ولكنها غير مطلقة ، إنه كالعين والأذن ، ترى الأشياء رؤية واضحة وتسمعها ولكنها ـ عند أبعاد معينة ـ تراها وتسمعها كأشباح أو همهمة أشباح . وبعد ذلك لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئا .

وأنصف من قال إننى لا أضع الثقة المطلقة فى عقلى وهو الذى ترهقه وتعجزه مسألة من مسائل الهندسة أو الحساب .

وللقلب وظيفة كما للعقل تماما وكما للسمع والبصر ، فإذا قام من يقول إننى لا أفهم شيئاً اسمه القلب حتى أومن بحديثه وحدسه . قلنا له ونحن لا نفهم شيئاً اسمه العقل حتى نؤمن بمعقولاته ومفاهيمه ، كلاهما شىء مسمى لا نعرف كنهه ومع ذلك لا نستطيع أن ننكر وجوده ، ولكل منهما قوى لا بد أن نسلم بها وإن لم ندرك حقيقة مصادرها أو كيفية العمل الذى تمارسه تلك المصادر على الإطلاق .

ولكن متى نلجأ إلى القلب . ومتى نلق إليه بسمعنا عندما يكون للقلب نداء ؟

نلجأ إليه عندما يقف العقل كليلا أمام معضلات الطبيعة أحيانا وأمام معضلات ما وراها كل الأحيان ،

فالحواس التى نؤمن بتجربتها لا تخرج فى وظيفتها عن نطاق المحسوس المجسم ، ولا يمكنها أن تربط بين تجربتين أو أكثر ، ولكن شيئاً آخر يربط بينهما وذلك هو العقل ، وفى أعماقه المجهولة تتكون المعرفة بطريقة لا نفهمها .

ولا يقوم العقل بوظيفته هذه إلا عندما ينتهى عمل الحواس وتقف عند حدودها التى رسمت لها وتترك العمل لغيرها الذى فى استطاعته أن يبدأ الشوط من حيث انتهت ويواصل الرحلة إلى مداها المرسوم .

ولكن العقل كما قلنا مجرد طاقة من طاقات الإنسان ، فيه عجز الإنسان وحدوده وفيه جهده ومداه ، ولا بد أن يقف عند غاية كما يقف السمع والبصر وسائر الأعضاء . وهنا لا بد من طاقة فى الإنسان قادرة على مواصلة الرحلة إلى مداها البعيد كما واصلها العقل منذ تلقى أصداء التجربة من منطقة الحواس ، وهذه الطاقة الهائلة هى ما نسميه الحدس والوجدان ، نلقاه واضحاً فى قلب الأم وهو يخفق نحو وليدها ، ونجده فى الشىء نخافه ثم نلقاه رغم أن العقل يستبعده ، ونلقاه

فى دراسة ما يسمونه بظاهرة التلباثى أو الشعور عن بعد . وعدد كبير من الظواهر الغامضة التى لا تفسير لها إلا أنها رسائل تحملها شفرة غامضة وتأتى بها من أعماق الإنسان بعيدا عن عقله ، تأتى بها من قلبه إلى واقعه ، وتذهب المذاهب فى تفسيرها من غير جدوى .

حتى قال بسكال : إن للقلب منطقاً هيهات للعقل أن يفهمه .

وقال كيرك جورد : يجب أن تؤمن لأنك لا تدرك ، وقال أيضا : إن الإدراك يتعامل مع المحدود أما الإيمان فمع اللامحدود .

وقال سلفى قديم : العجز عن الإدراك إدراك .

ولئن قام أناس يكذبون حديث القلب والوجدان ويزعمونها أوهاما فقد قام غيرهم يكذبون بوجود المادة ويؤمنون بالعقل ، كما نهض من ينفى قدرة العقل ويؤمن بالمادة ، ومن بين هؤلاء وهؤلاء صاح من يكذبهم جميعاً ويقول: إنما نحن فى حلم !

إذن ،، هناك قوى فى الإنسان تتدرج فى كفايتها وأبعادها ويأخذ بعضها عن بعض سعيا وراء الهدف الذى خلق من أجله الإنسان .

ولعل هذه المحاولات المتواصلة التى يعيش الإنسان فى حومتها هى الشغل الشاغل الذى قذفت به القوة الخالقة فى معمعانه ليشقى ويسعد أيضاً .

ولقد قلنا إن علم الرمزية القديمة يذهب إلى أن الشجرة هى رمز المعرفة عند القدماء ، فإذا كان أبو البشر لم يرض بالأسماء التى تعلمها من ربه وليست فى ذاتها إلا المعارف الضرورية لحياته ، وطمع فى أكثر من ذلك وأبى إلا أن يدخل فى نضال المعرفة والكفاح من أجلها فأقدم على الأكل من الشجرة التى هى رمزها يريد ليفجر أمامه . إذا كان قد فعل ذلك فقد اختار ذلك المعترك ، وكتب عليه أن يعيش مكافحاً على أرض المعرفة ليتزود بالتجارب منها ، منطلقا بحواسه وعقله وقلبه نحو وديان المجهول .

ولعله أيضاً مايفسر كيف اعترضت الملائكة على وجود هذا المخلوق وهى التى ملأت الأرض عبادة وتسبيحاً وتخشى منه أن يفسد فيها ، فتجيبهم الذات الخالقة بأنها تعلم أشياء لا يعلمونها وهى أن رسالته ليست عبادة فحسب ولكنها علم ومعرفة أيضاً تزود لتحصيلها بحواسه المادية ليدخل فى دنيا التجارب ويعود منها عالما بكل خفية فى العالمين ، وتلك رسالة لا تصلح لها الملائكة لأنها عاطلة من تلك الأعضاء .

سبحات هذه .. أليست كذلك ؟

ولكن لا بأس .. أليست الحقيقة فى ذاتها خيالا ضخما ؟

أليست أحلام العلماء القدامى والمعاصرين هى واقع العلم الذى نعيش اليوم فى دنياه ؟

لقد باتت أحلام فراداى وأديسون وماركونى حقائق شادت عليها المدنية المعاصرة أعوادها ورفعت بناءها الشامخ ، ولم تكن غير بضعة من التخمينات والتقديرات والقضايا المنطقية والعمليات الرياضية عاشت وتمخضت عن عالم هائل من المخترعات والمكتشفات التى نعيش فى ظلها اليوم فنسمع ونرى خلال أجهزة صغيرة فى حجرة مغلقة ما كنا فيما مضى نقطع إليه الآلاف المؤلفة من الأميال .

وغير هؤلاء كثيرون ، لم يكن رائدهم سوى العقل والحدس والتخمين بل والرؤى فى المنام .

كانت الذرة بصورتها المعاصرة خيالا طاف برأس فيثاغورس وديموقريطس ولوسيباس منذ قرون قبل الميلاد . بل طافت — ويا للعجب — برأس رجل عاش فى عالم الدراويش القدماء وهو السهروردى المتصوف المشهور عندما قال صراحة أن فى كل ذرة شمسا .

إرهاصات تغنت بحقائق اليوم عبر أزمان بعيدة فى ضمير التاريخ .

و ماذلك الوجدان المستشف الذى ألهم الإنسان بكل مخترعات الحضارة

إلا قبسا من القوة الكامنة فى أعماقه ، تلك القوة التى ألهمته معنى الوجود وما زالت تقدم إليه المزيد من أسراره ، والتى أذاقته حلاوة الدين فى نبعه الصافى وصاغت له عرائس الحب والفن والخير والجمال .

الدين — إذن — روح الحياة وضميرها،وهو الذى همس للإنسان بما حشد لدراسته كل طاقاته وقواه فأخرجه شيئا يرى على مسرح الوجود المنظور .

وعلى الذين لا يصدقون بما يتحدث عنه الدين من غيبيات أن يبحثوا عن معاول يهدمون بها تاريخ العلم ، ويحطمون بها ذلك الحشد الهائل من تكهنات العلماء فيما بين أيديهم من ظواهر كونية وفيما خلفها من أسرار ومخبآت .

ولكن العلم وهو يتحدث، إنما يتحدث عن شواهد بين يديه . أما الدين فيتحدث عما بين يدى العلم والناس وما يكمن خلف العلم والناس .

إنه يقدم هديا عندما يحاران معاً . . . ويصوغ قصة الوجود كاملة عندما يتحطم هيكلها وتتوزع أشلاؤها بين هؤلاء وهؤلاء .

بعد التحدّى

الدين فى ذاته

لقد آن للدين أن يقدم نفسه بعد أن جلجل طويلا فى ساحة المحكمة فانتبهت له الأسماع والتفتت إليه الأبصار ، وأصبح قوة يحسب حسابها العلم والفلسفة وتفرض سلطانها على قلوب العلماء والحكماء .

هو فى شكله المعاصر نزعة من أعماق الإنسان تحمله على الإعتقاد بحدوث نبوات قديمة وكذلك بصحة التراث المتوارث عن هذه النبوات .

وهو يختلف قوة وضعفا من شخص لآخر ، كما يتلون بلون الثقافة والمزاج ورواسب البيئة الاجتماعية وسائر المؤثرات التى تحيط بصاحبه منذ نعومة أظفاره حتى يشتد عوده ويصبح غير قابل للتغيير .

وهو قديم مع الإنسان يأخذ جانبا من ميوله وغرائزه ويعيش معه على ألوانه ومختلف مصادره ، حتى يلاحظ الإجتماعيون أنه يمكن أن يكون هناك مجتمع بلا علم ولا أدب ولا فن، ولكن لا يوجد مجتمع بغير دين .

والمؤمنون حقاً لا يعنيهم البحث فى معتقداتهم ولا يقبلون جدلا فى هذه الناحية. أما غيرهم فيجادلون أنفسهم أحياناً إذا ساورتهم الريب، ويضعون الدين على بساط البحث والنقد بل ويهاجمونه إلى درجة تتصف بالتحامل أحيانا، وبالتعصب ضده أحيانا أخرى، إلى حد يفوق التعصب الدينى فى أبشع صوره التى يحفظها لنا التاريخ .

وهناك من تملك عليه العقيدة جوانب نفسه ولكنه يتظاهر بالتحرر منها ، إما طلبا للشهرة بحكم المخالفة ، وإما تظاهرا بالعلم الفياض والإحاطة بأساليب التفكير المعاصر فى جامعات الغرب وبالنضوج العقلى الذى يرفض الخضوع لأفكار بالية عاش الناس فى أوهامها زمنا لأنهم لم يصلوا إلى مستواه العقلى والعلمى الذى كشف له عن حقيقة الخدعة الكبرى ، خدعة الأديان ، وعدد هذه الطائفة كبير ويتكاثر فى هذه الأيام .

وهناك فريق من المتدينين قد أسرفوا على أنفسهم إلى حد بعيد يفوق طاقاتهم ويبهظ كواهلهم . وهؤلاء تنتابهم حالات من التنفيس أو الإنفجار الذى يخفف عن ظهورهم بعض ما يحملون . وتجد هؤلاء بين جهلة المتدينين والمصابين بما يسمونه العته الدينى ، وعندما يمسهم طائف من الكرب ينقلبون على أعقابهم أشد تطرفا فى جحودهم وانحرافهم حتى كأنهم لم يعرفوا للإيمان طعما فى يوم من الأيام . ومن أولئك صاحبنا الذى تحدثنا عنه فى مقدمة هذه الصفحات .

وإذا وصل التدين إلى مرحلة الغيبوبة والفناء فى العقيدة . وصلت بصاحبها الحال إلى درجة من التجريد ومن شدة الشوق إلى الحقيقة . فيفنى فى متاهاتها ويتحدث بلغاتها التى تبدو بعيدة وغريبة عن دنيا الناس ، حتى ليقول أحدهم : أنا الحق سبحانى وما اعظم شأنى . ويقول الآخر عن نفسه : مافى الجبة إلا الله .

وكم لاقى أولئك المجاذيب من عنت ومن مطاردات بسبب ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال . ونذكر منهم ابن العربى والسهروردى والحلاج الذى دفع رأسه ثمنا لتلك الأحوال .

وقد يضبط بعضهم نفسه ويخفى عن الناس ما يلقاه وما يدور فى هواجسه فنجد من يقول وأظنه جعفراً الصادق :

يارب جوهر العلم لو أبوح به لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمى يرون أقبح ما يأتونـــه حسنا

بل من هؤلاء من يزعم أنه وصل إلى مرتبة تتلاشى عندها الأبعاد المكانية والتغيرات الشيئة مثل ابن عربى عندما يقول .

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ولوح لتوراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

ومثل هؤلاء يعرفهم الناس باسم المتصوفة وحديثهم يطول .

* * *

ونعود إلى جماعة المتشككين والذين وضعوا الأديان موضع البحث فنجدهم يذهبون فى تعليلها مذاهب شتى تـكاد تلتقى كلها عند نظرية تقول أنها وليد الضعف الإنسانى واسترحام الطبيعة ، وأنها النتيجة الحتمية لجهل الإنسان فهو عندما يجهل الأسباب وتأخذه روعة المظاهر يسندها إلى روح قوى يمارس أعماله فى الخفاء .

وتلك فكرة تناولنا زيفها فيما سلف من هذه الصفحات .

كما قيل أن الكهانة والأساطير هى أصل الأديان . وهذا قول متهافت وأقوى منه أن يقال العكس .

وذهب رجل مثل (أوجست كونت) إلى تقسيم مراحل المجتمع الإنسانى إلى مرحلة الدين ثم الفلسفة ثم العلم . وصفق له قوم وصفعه آخرون بما شاهدوا من تعاصر هذه الظواهر الثلاثة فى مجتمع واحد . وبما قدموا من نماذج وأمثلة عن رجال فى قمة المجد العلمى وفى قمة التصوف أيضاً ، كما قدموا رجالا فى حضيض الجهل والإلحاد معا .

على أن ذلك كله ليس إلا عرضا لمرحلة الصراع الذى دارت رحاه بين الدين والعلم زمنا ثم بين رجال كل منهما زمنا آخر . وتلك مرحلة طواها الزمان واقترن مغيبها بمغيب القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين .

بقيت طائفة من المتدينين يسمون أنفسهم المؤلهة . وهم جماعة يسلمون بوجود الله . ولكنهم ينكرون النبوة والرسالات قاطبة . فإذا عرضت عليهم نماذج صالحة من أولئك الأنبياء شكروا سعيهم ومدحوا جهادهم فى الإصلاح .

أى أنهم لا يضعون الأنبياء إلا فى زمرة المصلحين. وإذا عرضت عليهم المعجزات أعفوا أنفسهم من السماع إليك وأفهموك أنهم ليسوا بحاجة إلى تسلية أنفسهم بسماع هذه السلسلة من أكاذيب التاريخ .

ونحن لا نسارع فى ذم هؤلاء والسخط عليهم . فأمامنا أمثلة صارخة لهذا اللون نجدها فى القدامى من بنى إسرائيل وما كان بينهم وبين النبى موسى . فبعد ما طرح أمامهم روائع معجزاته أنكروا إلهه وعبدوا العجل من بعده

وأمامنا المسيح ابن مريم بمعجزاته الخارقة ومع ذلك طالبوه بأن ينزل إليهم مائدة من السماء .

والقرآن يصور لنا هذا الطراز من المعاندين ويكشف لنا شدة إصرارهم على باطلهم ولو أمسك برقابهم كل برهان . . وفى ذلك يقول : ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون .

أمثال هؤلاء لا يمكن إقناعهم عن طريق التاريخ أو شواهده إذا أنت تحدثت اليهم عن الأنبياء والمرسلين. ولكنك واجد بينهم من يستمع إليك وأنت تتحدث عن تاريخ الفلسفة والفلاسفة . وتسرد النظريات العلمية وكيف بدأت وتطورت إلى واقع العلم الذى نحسه ونراه .

تفرقة لا ندرى كيف صنعوا لها الأسباب والمبررات .

ومع ذلك فنحن لا نبتئس من هؤلاء ولا نذم مسلكهم . بل إننا نمهد لهم عذرا أمام الركام الهائل الذى يسد الأفق ويصدع الرأس من مبالغات المؤرخين والقصاصين .

ومن أمارات هؤلاء الناس أنهم يسايرون المؤمنين فى حياتهم ويتأدبون بآدابهم دون أن يؤدوا معهم شعائر الدين .

فاذا سألتهم كيف هذا الذى تصنعونه ومن أين جاءكم أن هذا الذى تصنعونه خير . أجابوا بأنهم مستعدون للتخلى عنه اذا أنت برهنت لهم على أنه مسلك لا خير فيه .

وهذا يعود بالأذهان إلى معركة تأجج لظاها أيام المعتزلة وعرفت بالجدل حول الحسن والقبح وهل كان التعرف عليهما صادرا عن الشرع وتعاليمه أم هو صادر عن العقل وقياسه .

كما يعود بنا إلى من يعرفون فى التاريخ الجاهلى باسم (الحنفاء) . وهم جماعة تمسكوا بأهداب الفضيلة فى القول والعمل رغم حياتهم فى صميم الجاهلية العمياء ويذكر لهم تاريخ الأدب أمثال قولهم :

الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أقبح ما أوعيت من زاد

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلو وأما وجهه فجميل

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

ألا كل شىء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وتركت شرب الراح وهى أثيرة والمومسات وترك ذلك أشرف

وعففت عنه يا أميم تكرما وكذاك يفعل ذوالحجى المتعفف

* * *

والحق أننا أمام هذا الطراز من المؤلهة لانملك إلا أن نعرض قضايا الدين كظاهرة إجتماعية كما نعرض قضايا الفلسفة كظاهرة فكرية وكلاهما يضرب أعراقه فى قلب التاريخ .

إنهم يستبعدون القول بأن السماء اتصلت بالأرض عن طريق الأنبياء ويقولون : لو أراد الله أن يبلغ شيئا للناس لما كانت به حاجة إلى هذه الطريقة المسرحية التى يرويها المؤرخون ورجال الأديان وهى إيفاد من يبلغهم قوله ويملى عليهم رغبته. إنه قادر على أن يضع فى قلوبهم ما يريد أن يقول وأن يلهمهم طريق السداد .

ثم يضيفون : ولماذا كان ذلك فيما مضى ولماذا لا يحدث الآن ؟

ومن الحماقة أن نغضب من طرح هـــذه الأسئلة ، فربما خطرت لبعض المؤمنين ، ولكنهم ،كما قلنا، لايقبلون جدلا أو اعتراضا على عقيدتهم حتى من داخل أنفسهم .

وكما يجيبنا القوم بأن مسلكهم فى الحياة — وهو مسلك إيمانى — يمكن أن يتخلوا عنه إذا أثبتنا لهم أنه مسلك يخلو من خير . كذلك نجيبهم بدورنا : إذا أثبتم لنا استحالة اتصال السماء بالأرض أو اتصال الخالق بخلقه وهم الأنبياء فإننا سننفض من حولهم ونرجع من ورائهم فى الحال .

ولكننا لا نجد استحالة فى ذلك . بل نجد فى الإنسان قوة روحية قادرة على أن تقوى وأن تفيض من حولها وتتسامى بقوتها متى تجردت من علائق المادة فتأتى بالعجائب والمعجزات . وتلك ظواهر يعترف بها العلم ولكنه يعلن أمامها إفلاسه وعجزه فى أن يعللها بوسائله أو يفسر شيئاً منها .

وفيما سلف من ظواهر الإلهام . وعجائب الأحلام والقوة الروحية التى تتزايد عن طريق الرياضة كما يفعل فقراء الهنود وغيرهم ، فى كل ذلك مايدل على أن للانسان روحا وأن فيه سرا يبلغ حدود التجريد والتسامى إلى مرتبة أعلى من المرئيات ثم يدخل فى عالم نجهله تماما .

كما قلنا أن للقلوب وظائف تختلف عن وظائف العقول ، وأنها قابلة لأن تكون أقوى فى أنسان منها فى إنسان آخر كما يكون البصر والسمع والشم وكل الحواس والعضلات أقوى فى أناس منها فى الآخرين. ثم أمامنا الحاسة السادسة وعجائبها وما يتمتع به بعض الأشخاص من قوة فى الحفظ وفى حل المسائل الرياضية والمعضلة دون ورقة أو قلم ثم قراءة الأفكار والكتب المقفلة ، ثم الاكتئاب والانبساط لسبب لم يعلم بعد . وغير ذلك كثير وكثير يدل على

طاقات كامنة فى مجاهل الوجود الإنسانى لانستطيع أن نعللها علميا أو نلمس وجودها الذاتى فى كيانه المادى المعروف .

كل هذا وبعض هذا ، يثبت لنا عبقريات روحية أقرب إلى سر الوجود يتمتع بها بعض الناس فيصبحون بها أكثر إحساسا بمعانى الوجود وأكثر استعداداً لتلقى فيوضات مصدرها وراء ما نحس وما نعلم ، وبتلك المواهب وبهذا الإشعاع العبقرى وصل الأنبياء إلى مجاهل الكون وانسابت أرواحهم فى ضميره وكان من شأنهم ما كان .

إذن . . ليست هناك استحالة ، ولهؤلاء المؤلهة أن يتصوروا كيف اتصلت السماء بالأرض ، فليكن وحيا وليكن إيحاء ، فليس هناك فرق كبير .

فإذا تصوروا الأمر وحيا فليست هناك مسرحية ، لأن الإتصال يقوم عن طريق رجل منهم لا يخالف طبيعة الأشياء بعد أن أسهبنا فى تبيان الاختلاف والتمايز بين القوى البشرية روحا وإحساسا وفهما ، وليس الوحى إلا واسطة اتصال وتلاحم بين عالمين يختلفان فى درجة الإهتزاز الأثيرى ، وذلك أمر يسلم به علماء الطبيعة من غير جدال .

ونحن نشاهد على مسرح الطبيعة صورا من هذا التلاحم الذى يأتى عن طريق التقارب بين الأطراف، فالجماد يتصل بالنبات عن طريق خضراء الدمن. والنبات بالحيوان عن طريق النخل والكرم . والحيوان بالإنسان عن طريق القرد أو إنسان الغابة . وتلك أمثلة من فصول لها مباحثها الطويلة فى علوم الأحياء ولها قصة طويلة فى سلسلة الترقى الذى يصل بين الموجودات التى نراها ونحس بها من ناحية ، وبين عالمى الشهادة والغيب من ناحية أخرى مما أفاض فى التحدث عنه عدد من مفكرى الإسلام وفى طليعتهم عبد الرحمن ابن خلدون .

إذن . . وعلى هذا القياس . . نستطيع أن نفهم لماذا يقول القرآن : (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) ، فالملك لا بد أن ينقلب رجلا حتى يتساوى مع اهتزازات القوم ويصبح فى عالمهم ليمكنهم أن يروه ويتحدثوا إليه ؛ وحينئذ سيعود اعتراضهم على الرسول مرة أخرى فيقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم .

أما إذا أصر أصحابنا بعد ذلك على أنها مسرحية ، وكانت فكرة الإيحاء أقرب إلى أذهانهم وأذواقهم ، فلهم ما يشاؤون فالمهم أن نصل إلى روما ومن أى طريق .

أما قولهم : فلماذا كان هذا فيما مضى ولا يحدث الآن ، فسؤال سنلتزم الصمت أمامه قليلا حتى نفرغ من مناقشة قصيرة للمسائل الآتية : —

الحوادث الطبيعية الكبرى ، لماذا تمت قديما ولا تحدث الآن .

سديم تكون من حيث لا يعلمون ، وفى ظروف لا يعرفونها أيضاً ثم تشكلت من السديم نجوم وكواكب وأقمار وانفصل بعضها عن بعض .

حدث ذلك كله فيما مضى ولا يحدث الآن .

ثم لماذا تجمعت تلك الظروف السعيدة التى هيأت للحياة أن تظهر على كوكبنا فى زمن مضى ، وها هو الجماد ماثل أمامنا فى كل مكان ولا تتخلق منه الحياة خلقاً ذاتياً رغم تطاول الأزمان وتقلبات الظروف والأحوال .

لماذا حدثت فيما مضى ولا تحدث الآن !

ثم ما يذهب إليه البعض من أن الحياة لم تخلق هنا على أرضنا ولكنها جرثومة حملتها عوارض الكون وهامت بها عبر ذلك الفضاء المجهول واستقرت بها على أرضنا رغم انخفاض الحرارة فى الفضاء إلى درجة قاتلة ورغم شدة الحرارة على الأرض فى ذلك الزمن إلى درجة الانصهار . . .

هذا شيء يتعارض مع قوانين الطبيعة حدث فيما مضى ولا يحدث الآن !

وهنالك ظاهرة (الطفره) التى حدثت بين الأحياء فى زمن قديم ففصلت

بين الأجناس والأنواع وجاءت بهذا الفرق الشاسع بين الحصان والإنسان مثلا . وبذلك الإختلاف البعيد بين حافر الأول وأصابع الثانى. وتلك الطفرة حدثت قديما ولا تحدث الآن .

ثم الحياة ، وأنها ليست غريبة عن المادة ، كيف انبثقت من صميمها ومن أجزاء معينة قداختيرت لذلك من ركام هائل يملأ الكون ، ودون بقية هذا الركام.

حدث ذلك كله فيما مضى ولا يحدث الآن .

كذلك خصيصة التطور ، لماذا لا تجد لها حقلا تؤدى عليه وظيفتها بين الجمادات ، فاختارته بين الأحياء ثم لا يحدث ذلك إلا فى لحظة قصيرة من عمر الكون ومشيب الأزل . . . الخ .

وتلفت فلا تجد شيئاً من ذلك يحدث الآن .

ويقف أمامنا طابور من الأسئلة نطرحها على أولئك العلماء الذين يعكفون على دراسة الكون ليفسروا لنا كيف حدث ذلك كله فيمامضى ولا يحدث الآن رغم أن الكون هو الكون ، ورغم أن طاقاته لا تفارقه ، ولا تكف عن عملها آلياً وتلقائياً كما يزعمون .

ونحن لا نكلف أصحابنا أن يسألوا أنمتهم عن ذلك ، فقد أعلنوا إفلاسهم منذ زمن بعيد . وقالوا لناأن الظروف التى لعبت دورها فى كل هذه الإنقلابات غير معروفة لهم ، كما أن توقيتها على ذلك النحو مسألة ما برحت لغزا فى ضمير الكون ربما أباحته الطبيعة لنا فى يوم من الأيام وربما ظل مطويا إلى آخر الأبد .

هذا كلام معقول جدا . ومضبوط جداً.مادام صادرا عن جماعة من علماء الطبيعة الحية والطبيعة الجامدة .

أما إذا قال تاريخ الأديان بمقالة من هذا الطراز عن مواقيت النبوة وانقضاء عهدها ، فإن الشيخ زعرب قد كفر .

ونعود إلى أصحاب المسرحيات . ولابد أن يكون قدأصابهم شىء من الخجل والحياء .نعود إليهم لنصرف عنهم بعض ما يجدون من حرج ثم نقول لهم:

ومع هذا وبعد كل هذا ، فلن يعدم الدين جوابا عن سؤالكم .

ولن يقف موقف العجز الذى يلوذ به العلم أمام العدد العديد من قضاياه ، إن الدين يتكلم دائما حتى بعد أن يسكت العلم .

ولقد عرفنا أن أصحابنا لا يحسنون ظننا بالتاريخ . ومن أجل ذلك فسوف لا نحتكم إليه .

لكنهم لا يستطيعون أن ينكروا سنن الطبيعة وقوانين التطور .

ويعرفون قبل غيرهم أن المجتمع الإنسانى قد بدأ طفلا ، ثم أخذ طريقه على مراحل النمو والتقدم ، وتحدث التاريخ عن تلك المراحل صادقا مرة وغير صادق مرة أخرى . ولكن الذى لا نملك إلا أن نسلم به هو أنه بدأ ناقصا ومفتقرا إلى عين ترعاه .

وكان لابد من ظهور النبوة فى تلك المراحل الأولية ولابد من ظهورها متدرجة المناهج منتظمة الأحداث ترقى بالناس حسب طاقاتهم وقدرتهم على فهم تلك المناهج والإنتفاع بها .

بدأت من أجل ذلك توحيداً ودعوة إلى الله ، حتى يتم القضاء على عبادة الطواطم والآلهة المزعومة التى فرقت الناس شيعاً ، وحتى يتخلص المجتمع من عبادة الفرد ملكا كان أو كاهنا أو قويا من الأقوياء ، تلك العبادة التى أخضعت الفرد للفرد وأذلته وكانت سببا لكل المظالم والاضطهادات وصور البؤس التى طفحت بها كل أزمان التاريخ . .

فلما نهض القطيع المتعثر واستوى ولو قليلا على سواء السبيل بدأت ديانات قوية تمد ذراعيها إليه وتحيطه بهالة من التعاليم الخالدة بعد أن طهرته من عناصر ميئوس من صلاحيتها ولم يكن من الخير أن تبقى ، وهى العناصر التى أحاطت بدعوة الأنبياء القدامى وحاربتها ، والتى كان لابد من اجتياحها بالصواعق

والرجفات والرياح العاتية التى كانت تحدث عادة بعد أن تصبح الدعوة صرخات بلا جدوى .

كان لابد للسماء أن تتدخل لصالح البشر ، ولابد أن تضع لهم مبادىء خالدة لأنهم لا يستطيعون أن يضعوها حتى بعد أن بلغت الإنسانية مبلغ الرشد والنضوج ، آية ذلك ما نراه اليوم فى عالمنا من صراع لايهدأ ومن خلافات لاتنتهى ولا تتصالح على شىء ، مذاهب فى الشرق والغرب تختلف على أساليب التربية والنظم الاجتماعية والاقتصادية خلافا لايلتقى إلا على سلاح ولايفترق إلا على هدنة ، وبين هذا وذلك حياة يود أصحابها ألا تكون .

وليست هذه الخلافات الدامية لأن العقول المفكرة تنقص هذا العالم، ولكن لأن هذه العقول لاتملك القدرة على رؤية الحقيقة كاملة والعدل خالصا غير مشوب. وما ذلك إلا لأنها محاطة بالطبيعة البشرية ، وهذه الطبيعة من شأنها أن تبرر للعقل ما تشتهى وتحجب عنه شمس الحقيقة ما دامت لا تلائمها ولا تشبعها أساسا وهى التى قامت على ركام هائل من الأثرة وخليط متلون من النزوات والشهوات .

هذا النقص الذى يعانيه الإنسان بطبيعته لايمس كمال الحقيقة الكبرى التى تهيمن على هذا الكون ، ومن أجل ذلك فهى قادرة على معرفة الخير والحق ، دون أن تتأثر بأى من العوامل والشوائب التى سبقت ، ومن ثم كانت هى خير المصادر المحايدة التى يصدر عنها تشريع ملائم يرعى مصالح البشر ويخطو بأفراده ومجتمعاته نحو الكمال المنشود .

وتدخلت السماء وأرسلت أنبياءها ، رحمة منها وعناية بمصير الإنسان .

وعندما نتحدث عن عناية السماء لا نستعير هذه الكلمات من لغة الكهنوت كما يسبق إلى أذهان البعض ، ولكننا نستمدها أساسا من قاموس الطبيعة ولغة الحياة .

أليست عناية من السماء أن يعيش أجدادنا البعداء والقرباء فى لهاة حرب ضروس طويلة المدى تعلنها الأوبئة والطواعين والأمراض المعدية وهم لا يعرفون شيئاً عن طبيعتها أو مكافحتها ؟

إن وباء واحداً من مرض الملاريا كان كفيلا بأن يبيد أهل الأرض جميعاً . ولم يكن أحد هناك يعرفه أو يمارس له وصفاً أو دواء يقف أمامه أو يقضى عليه ، وكذلك التيفود والطاعون والحمى الصفراء ... إلخ

كانوا يجهلون مكافحة هذه الأوبئة التى لا تعرف حدودا عندما تجتاح الأرض ومن عليها .. ومع ذلك عاش البشر .

لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الفيتامينات والأمصال والمضادات الحيوية والمطهرات والأنزيمات ووظائف الغدد وضرورة الهرمونات وإفرازات الغدد الصماء أو غيرها ، ومع ذلك بقيت على الأرض تلك المجتمعات .

ثم هذه الحشرات التى كانت تغطى الأرض وتحيط بالإنسان أيام الكهف والحياة البدائية الأولى .

وتلك الوحوش الضوارى التى جالت عليها وهو عائش بينها فى العراء ، وهذه الميكروبات والجراثيم التى حيل بينها وبين الضخامة رغم أنها أول ما عاش على هذه الأرض ، كان أولى بها أن تكبر عن ذلك وتطغى وتلتهم كل شىء .

وهذا التسلط والعداء الذى ركب فى طبائع الميكروبات وأنواع البكتريا وجعلها تتناحر فى أمعاء الإنسان حتى يبيد بعضها بعضاً بدلا من التسلط بكل شراستها على حياة الإنسان ... الخ

هذا كله كان يمكن أن يأخذ مداه لو جرت عليه نواميس الطبيعة كما

نعرفها اليوم.. ولو أن قوانينها أخذت طريقها بغير عناية إلٓهية تكفكف من ضراوتها ، لما بقى من هذه البشرية من يروى خبرها أو يدل على أنها كانت على الأرض فى يوم من الأيام .

بل إن هذا الوليد ، وليد الإنسان، ما كان يمكن أن يعيش وهو لحم طرى ملق على أرض الكهف أو محمولا على كواهل آبائه يهيمون به فى الفلوات والغابات بين زمهرير وهجير وبين غضب الطبيعة التى لاترحم . . . ولكنه عاش .

فمن الذى وقف لهذه البشرية يدفع عنها كل غائلة ويذود عن حياتها لتواصل تلك المسيرة الطويلة على جسر الزمان وأرض الأهوال .

أليست عناية الله ؟

إن الطبيعة ، كما نعرفها ، جبار لايرحم، تشق طريقها وتلعب دورها لاتبالى تركت على الأرض بقاء أو جلبت عليها فناء ، وهى فى سننها التى أتينا على طرف منها كان حتما — لولا العناية الكبرى — أن تمضى بأجدادنا وبكل البشر إلى هاوية الفناء والعدم .

هذه العناية التى أدركت الإنسان فى مهده الأول وصنعت له من الموت حياة ومن الهلاك نجاة ومن الخطر أمنا ، لم تكن لتنقذه من شرور الطبيعة ثم تتركه فريسة لشرور نفسه ، فكان لابد من الرسل والرسالات وكان لابد من تربية إلٓهية ترد ضميره إليه كلما جمح. وتكفكف من نوازى الشر بين جوانحه كلما هاجت وهاج .

ولم تنس السماء ماركبته قديما فى طبيعة البشر فوعدت ثوابا لمن أحسن

وأوعدت عقابا لمن أساء . وبين الوعد والوعيد وبين الترغيب والترهيب فهم البسطاء شيئاً وفهم العلماء والحكماء شيئاً آخر .

ولكن الشيء الذى التقوا عنده جميعاً هو معنى التقوى والإحساس بأنهم — فى كل ما كسبوا وما اكتسبوا — لا يبعدون أبداً عن عين الله ، ولو بعدوا عن عين القانون .

* * *

قل سلام عليكم

نقولها لمن سقت اليهم ذلك الحديث . ونقولها لمن ظنوا العقائد قيدا والأديان محنة وشقاء ينبغى أن يزول،

كذلك للذين أسرفوا على أنفسهم من المتدينين . والذين ينظرون اليهم من بعيد فتمتلىء نفوسهم خوفا وهلعا من هول مايرون وما يسمعون .

عذاب فى عذاب . وجحيم لا تريدأن تشبع أبداً ولا تريد أن ترتوى . كلما قيل لها هل امتلأت قالت هل من مزيد .

قطعان من البشر يسحبون إليها على وجوههم. سرابيلهم من قطران . كلما دخلت أمة لعنت أختها ولطمت خدها وصرخت هل إلى مرد من سبيل.

أهوال وأهوال . . ولا شيء غير ذلك لدى الواعظين والمرشدين منذ جلس إلى أصحابه الحسن البصرى وتصدى للوعظ أبو حامد الغزالى ووقف من بعدهما على المنابر واستوى على المقاعد العالية أناس لاهم لهم سوى أن يخلعوا قلوب الناس وأن يصوروا الله جبارا فى هيئة منتقم لا تهدأ له ثورة ولا يمل من تعذيب خلقه أبدا .

ويأبى أولئك الناس أن يكشفوا عن الوجه الآخر الذى تتمثل فيه رحمة الله وعدله ... رحمته التى وسعت كل شيء . وعدله الذى يضع فى حسابه ضعف الإنسان ونقصه والذى يشير اليه قول الخيام .

أفى هذه الدنيا أمرؤ غير مذنب   وكيف يعيش المرء فيها بلا ذنب
إذا كنت تجزى السوء سوءا نظيره   فما الفرق ما بينى وبينك يارب

امتلأ التراث الدينى بالكثير من الوان التشدد. وفاضت جوانبه بما يوحى بأن الأديان إنما جاءت لترهق الناس من أمرهم عسراً ولتضع قيداً على الطبيعة

البشرية حتى على الجوانب الطيبة منها . ولا نحسب أن ذلك من الدين فى شىء وإنما هى أوزار من عمل بعض رؤسائه ورجاله الذين ضربوا على الناس حصارا وصنعوا لأنفسهم جبروتا وكهنوتا وادعوا لأنفسهم أنهم أصحاب الكلمة فى مصائر الناس .

وكانت هذه الحال البائسة ضمن المساوىء التى أخذها على الأديان أعداؤها والتى كانت سببا فى تلك الحملة التى شنها العلماء فى عصر النهضة الأوربية وما بعده اعتقادا منهم أن نصوص الأديان ذاتها هى التى أسالت دماء الأبرياء وصنعت لهم كل المآسى التى ارتكبها متعصبو الكنيسه أيام القرون الوسطى .

ولما التفت بعض العلماء إلى الدين وعكفوا على دراسته وفهم مقاصده . طرحوا جانبا ذلك الفهم القديم . وأغمدوا سيوفهم عن الدين فى ذاته وبقيت عداوتهم لأهله ورجاله حتى ليقول رجل مثل فيكتور هوجو : إننا مع الدين على رجاله .

وزعم قوم أن الاديان لم تخلق لأيامنا المتحضرة . واستندوا إلى صور التخويف والتهويل وإلى تلك السذاجة التى تلاحظ على الكثير من نصوص الديانات القديمة كما وصلت الينا .

ونحن لا نقف هنا . فقد أطلنا الوقوف عندما تحدثنا عن تدرج الديانات منذ أخذت مسيرتها إلى جانب المجتمعات البشرية فى تطورها على جسر الحياة الطويل .

ولسنا ننكر أن جانبا من النصوص الدينية القديمة لا يلتقى مع العقل ولا مع واقع المعرفة الصحيحة ونواميس الحياة . وتلك يسأل أصحابها عنها ويحاسبون عليها .

أما نحن فقد أخذنا على أنفسنا منذ البداية أن ندافع عن وجه الدين وملامحه

كما صورها لنا آخر الأديان السماوية والقمة التى وصلت اليها فى تطورها وهو الإسلام .

ولقد قلنا أن الاسلام وهو يصور مسئولية الإنسان ، كان لابد أن يعرض لعواقب هذه المسئولية ، وهو فى سبيل ذلك يعرض بعض المشاهد عن يوم الدينونة ليفهمها الجهلاء والعلماء ، كل بما يصور له فهمه وشعوره ومستواه .

وكان لابد من وعد ووعيد . ولابد من ترغيب وترهيب بصورة أو بأخرى . .

وقلنا أنه إلى جانب ذلك يرحم الضعف البشرى ويرعى جانب النقص الذى يلازم الإنسان حتما ليكون فرقا واضحا بينه وبين الإله .

وهو إذ يرعى ذلك النقص ويرحم ذلك الضعف يحرص كل الحرص على أن يجعل الإنسان قريبا من التفاؤل والأمل . بعيدا عن التشاؤم واليأس فيبقى بمنأى عن العقد النفسية التى تفسد عليه حياته ودنياه .

فنراه يحشد فى القرآن حشدا هائلا من صفات الغفران والرحمة والرأفة بالعباد ، يأتى بها سياقا ويختم بها العدد العديد من آياته حتى ليتبدى كل ذلك وكأنه رسالة غفران .

ولقد أطلنا فى الكتابة عن ذلك فى حديثنا عن الوعد والوعيد عندما تكلمنا عن الخير والشر . وحسبنا هنا أن نسوق تلك الآية ثم ننصرف : قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم .

كما نسوق الأثر النبوى الذى يقول : توشكون — إذا لم تذنبوا — أن يذهب الله بكم ويأتى بقوم غيركم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم .

وبعد :

فالإسلام لا يقدم لنا قواعد بنت ساعتها : ولا يضرب علينا حصارا من

التشدد والإصر . ولكنه يقدم لنا صفحة مشرقة عن الحياة ويصنع لنا لقاء مع الطبيعة والفطرة وبحرى الأمور ، حتى أباح بعض أعدائه لأنفسهم أن يتهموه بالإباحة والتحرر وعدم التحلى بتشدد الأديان وتزمتها !

ثم هو بعد ذلك يضع أمامنا فكرة معقولة عما بعد الحياة التى نعيشها على هذه الأرض .

وهو فى سبيل ذلك يجمعنا على قصد واحد وغاية واحدة : إيمان بالروح الأكبر الذى يسيطر على الكون . وإيمان بالمثل العليا والحقائق الثابتة من الحياة التى نعيشها . ثم يربط بين هذا وذاك .. ذلك لأن طرح الناس جانبا كل ماسوى الخالق واتجاههم جميعا إلى الإيمان بالله الكبير معناه القضاء على عبادة البشر بعضهم بعضا . تلك الآفة القديمة التى لعبت دورها المدمر وهيأت لكل المظالم أن تقع .

فالطغاة آلهة . والأقوياء آلهة . يفرضون سلطانهم على المجتمعات ويذلونها باسم الحق الإلهى حينا وباسمهم أحيانا . إنهم آلهة لا يسألون عما يفعلون . والناس هم الذين يسألون ويعانون كل العذاب ولا يستصرخون .

ثم هو بعد ذلك يضع لنا دستورا موحداً له شعائره التى نزاولها لا قصداً لذاتها ولكن لما تخلقه فى نفوسنا من تثبيت لأكرم المعانى وتركيز لها على أسس ثابتة لا تبلى ولا تضعف قواها ما دمنا نمارس هذه الشعائر على وجهها الصحيح .

صلاة هى الخشوع للحقيقة الكبرى والتأمل فى علاقاتنا بها ، واستحضارها معنا فى كل ما نأخذ أو ندع . وبهذا يكبر القلب والعقل والضمير .

زكاة تعالج بها الأمراض الاقتصادية والاجتماعية التى لا يخلو من ويلاتها بناء جماعى بحكم التفاوت فى كفاءات الأفراد وحظوظهم من الحيوية والنشاط .

صوم يحمل معانى التهذيب ويوقظ فينا دواعى الصبر والرحمة ويملأ النفس عزما وقوة ويحد من جبروت الشهوات التى تدمر كيان الإنسان .

حج جماعى : هو فى حقيقته مؤتمر عام يعمل على تثبيت هذه المفاهيم على نطاق أوسع ويضع أسسا لتعاون أكمل فى تحقيق المصالح المشروعة فى كل زمان ومكان .

وبعد تفصيل هذه الشعائر . يأخذ الإسلام فى إلقاء الضوء على كل معانى الوجود ليعرف الإنسان موضعه ويلقى مصيره فى غير خوف أو وجل مالئا نفسه بالتفاؤل والثقة فى أن يجتاز هذه الحياة كبداية لرحلة طويلة سوف يلقى فى مرحلة من مراحلها موقفا يقدم فيه الحساب عما قدم وأخر وعما فعل أو ترك ، وفى هذا الموقف يتم تقييمه ويحدد له موضعه الذى سيواصل فيه رحلة الخلود على النمط الذى أرادته الحقيقة الكبرى لهذا الوجود .

وبعد أن يرسم الإسلام هذه الصورة للإنسان . يأخذ فى سن المناهج التى تكفل تحقيق الغرض من هذه الصورة . وهذه المناهج لا تخرج عن عدد من التشريعات التى تكفل الصالح العام وتضمن المصلحة الخاصة وتوفق بين المصلحتين . وهى فى مجموعها لا تعارض الطبيعة البشرية إلا عندما تنحرف مخدوعة بأنها تمارس حقا طبيعياً بينما هى عند التحقيق نزوة تجر الوبال على صاحبها وعلى المجتمع الذى يعيش فيه .

والإسلام بعد ذلك متسامح يرحم الضعف البشرى ، ويعد بالخير ، ويخاطب الطبقات المختلفة باللغة التى تفهمها ، لا يحاسب الرجل العادى بمفاهيم الفلاسفة والعلماء ، ولا يحاسب الأغبياء بنجابة الأذكياء ، وإنما يساير الطاقة البشرية ويقف معها عند الحدود التى لا تستطيع أن تتجاوزها عملا وتصورا ، فهو يأخذ بالإيمان القوى ويأخذ بأضعف الإيمان . ويأخذ بالرخصة عندما يستحيل تنفيذ

الأحكام أو يشق تنفيذها ، كما أنه لا يفرض حكما تتغير اعتباراته بتغير الزمان والمكان ، وإنما هى أحكام عامة بلغت من المرونة أنها اتسعت لمحاولات مختلفة ومذاهب متعددة وظهرت من خلالها ألوان من المرونة والتسامح باسم المصالح المرسلة والاستحسان وما تعارف عليه الناس وغير ذلك مما حفظ على التشريع الإسلامى روح الجدة والتطور مع طبائع الشعوب ومصالح المجتمعات ، وبما أتاح له أن يمد سلطانه على أقطار بعيدة المدى مختلفة المشارب والثقافات أيام دولته الكبرى .

وأخيراً . . .

فإن الإسلام فى ذاته قوة ضخمة وصرح شامخ بنته يد الإلهٓ ، فهو متطاول على الزمن خالد على الدهر ، تهاوت دونه كل القوى التى حاولت أن تهاجمه أو تتطاول عليه .

تباعدت عن كتابه الخالد شطحات الفلاسفة عندما كانت مهاترة وزيفا ، وتلاقت عند قدميه صاغرة عندما ثابت إلى رشدها واستقامت على نهجها .

وهو بعد ذلك منبثق الضياء ومهوى أفئدة العلماء والأدباء والفلاسفة ، وهو تلك الملحمة الكبرى التى عشت فى أحداثها زمناً فألهمتنى أشرف العناصر فى هذا الدفاع .

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

بعض المراجع

القرآن الكريم

السنة النبوية

قصة النزاع بين الدين والفلسفه — للدكتور توفيق الطويل

الطبيعة وما بعد الطبيعة — للأستاذ يوسف كرم

تاريخ الفلسفة — « « «

قصة السموات والأرض — للدكتور محمد جمال الدين الفندى والدكتور محمد يوسف حسن

تجديد التفكير الدينى فى الإسلام — للفيلسوف محمد إقبال

ألف باء النسبيه — للفيلسوف برتراندرسل

الكون الغامض — سيرجيمس جينز

المدارس الفلسفيه — للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

العلم يدعو للإيمان — أ . كريسى موريسون

تفسير البيضاوى — للإمام البيضاوى

حاشية الجمل على الجلالين — للشيخ سليمان الجمل

الدين — للدكتور محمد عبد الله دراز

دورات الحياه — للدكتور عبد المحسن صالح

نيتشه — للدكتور فؤاد زكريا

قضية الألوهيه — للأستاذ عبد الكريم الخطيب

ملتقى السبيل فى فلسفة النشوء والارتقاء — للأستاذ إسماعيل مظهر

تهذيب الأخلاق — لابن مسكويه

الله — للأستاذ عباس محمود العقاد

الآراء والمعتقدات — للفيلسوف غوستاف لوبون

رقم الإيداع

٥٢٧٣
____
١٩٦٩

هذا الكتاب

دراسة ممتعة تتناول قصة الوجود كاملة و تعرض أمام الفكر الإنسانى أعقد المشاكل التى احتكت بها عقول الفلاسفة وتجارب العلماء ، كل هذا بأسلوب شيق تتجلى من خلاله حجة العالم ومنطق المحامى ولغة الأديب .

وبهذا الكتاب يصبح فى متناول كل قارىء أن يلم بأدق المسائل فى يسر وسهولة كمسائل الخلق والتطور ونظام الطبيعة وسنن الوجود بما فيها القضاء والقدر والخير والشر وما قيل عن السماوات والأرض والطبيعة وما وراء الطبيعة وكل ما يشغل بال المثقف فى هذا العصر الذى ماجت جوانبه بالمشاكل والتحديات .

وفى هذا الكتاب تفسير واضح لموقف العلم عندما يهاجم العقيدة وعندما يهادنها . وكذلك موقف الفلسفة عندما تلحد وعندما تؤمن .

وهو بعد ذلك رحلة مثيرة تجوب بنا عوالم الفكر والأدب والتصوف ومواريث النبوة ورسالات السماء ؟



الثمن ٣٠ ص